

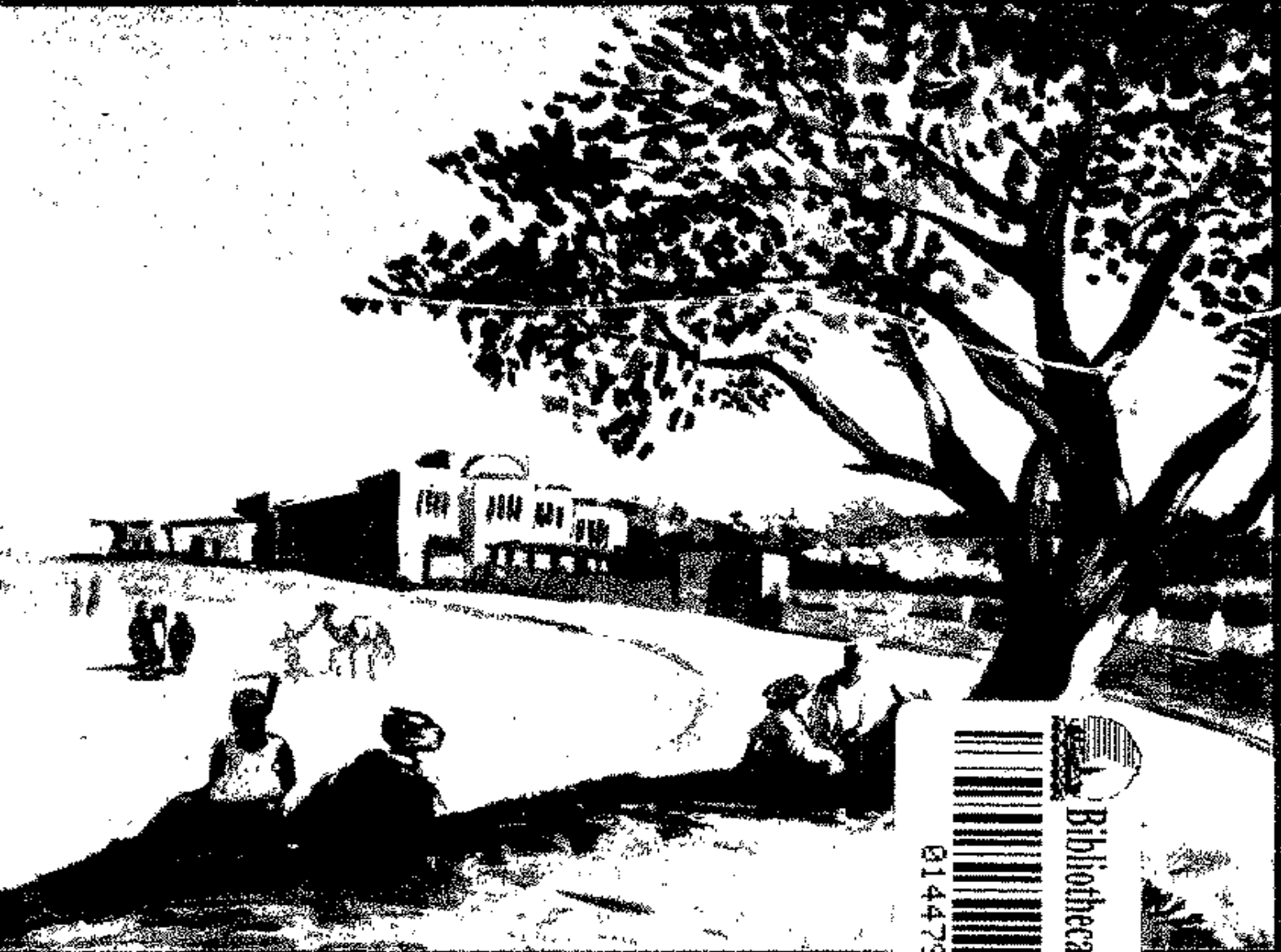
المفاخرات الباهرة

المفاخرات

١

بين عرائس متنزهات القاهرة

عز الدين المقدسي (٧٦٤-٨٢٠ هـ)
دراسة وتحقيق: محمد الشستاي



المفكرات الباهرة
بين عرائس متنزهات القاهرة

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م
جميع الحقوق محفوظة



القاهرة - ٥٥ شارع محمود طلعت

(من شارع الطيران) - مدينة نصر

تليفون : ٢٦١٠١٦٤

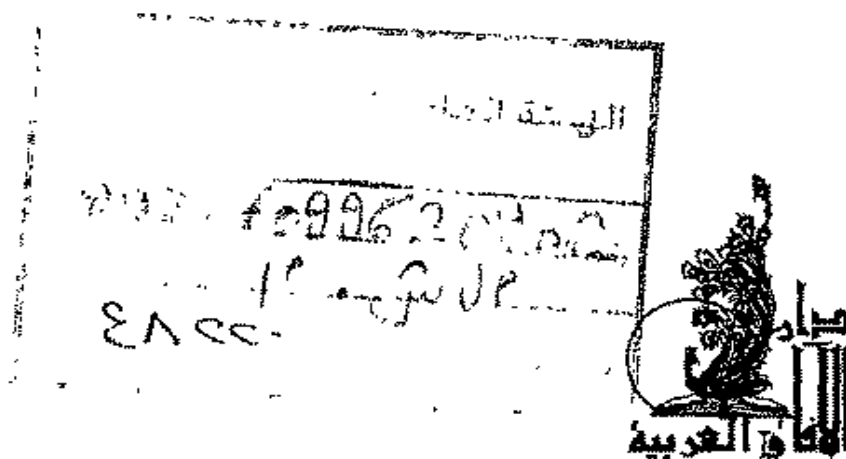
رقم الإيداع : ١٨٩١ لسنة ١٩٩٩

الترقيم الدولي : 977-5727-35-9

المفاخرات الباهرة

بين عرائس متنزّهات القاهرة

دراسة وتحقيق وتعليق
د. محمد الششتاوي



مقدمة

هذه دراسة لأربع مفاخرات أدبية من العصر المملوكي، ذلك العصر الزاخر بالأحداث السياسية والاجتماعية والاقتصادية الجليلة، إذ كانت دولة المماليك في مصر والشام والحجاز إحدى دول العالم العظمى آنذاك. وترجع أهمية هذه المفاخرات إلى كونها تعطينا صورة واضحة جلية عن الحياة الاجتماعية في العصر المملوكي التي قلما أمدتنا كتب التاريخ بمثلها حيث كان تركيزها على الجانب السياسي.

كما أنها أمدتنا بمعلومات قيمة عن متنزهات للقاهرة وبعض معالمها الهامة تفيد في دراسة التخطيط العمراني والاجتماعي القاهرة، ومثال لذلك المفاخرة بين قناطر الوز والزاوية الحمراء التي عرفتنا لأول مرة على بركة الحازندار التي لم يتطرق إليها أحد بالذكر من قبل.

كذلك فإن هذه المفاخرات تمثل لونا أدبيا انتشر في العصر المملوكي اتسم بالطابع الشعبي العامي؛ فبالرغم من وجود بعض أدب مملوكي ثمين ذي قيمة فنية وموضوعية عالية إلا أنه لم يلق بعد دراسة كافية؛ ولكننا نجد أن أدباء ذلك العصر اتجهوا في أغلب أعمالهم إلى الشعب عندما لم يجدوا تشجيعا ماديا ومعنويا كافيا من الحكام، فكتبوا باللغة العامية أو الفصحى القريية من العامية أو مزيج منهما، فردد الناس أشعارهم وأزجالهم ونشرهم بكل سهولة ويسر، وإننى عندما بحثت في أدب تلك

الفترة وجدت الأدباء يؤرخون تاريخاً متصلاً للعصر المملوكي من خلال أعمالهم الأدبية يسهل لنا دراسة تاريخ وحضارة مصر آنذاك .

ونقول عن المفاخرات إنها قرينة المناظرات وقد بدأت المناظرة أولاً كعلم يبحث في الشعون الفقهية والدينية والعلمية، وكان لهذا العلم أصوله وآدابه ومنهجه العلمي، وكان الغرض منه الوصول إلى الحق والصواب .

ثم سرعان ما انتقلت المناظرة إلى نواحي أدبية بحثت حولتها إلى مفاخرة ساخرة . ولكي تحقق المناظرة غرضها كان لابد لها من ثلاثة شروط، أولها أن يجمع بين خصمين متضادين أو متباينين في صفاتهما بحيث تظهر خواصها بالمقابلة كالصيف والشتاء، والربيع والخريف والماء والهواء، والشرط الثاني أن يأتي كل من الخصمين في نصرته لنفسه وتفنيده مزاعم منافسه بأدلة من شأنها أن ترفع قدره وتخط من مقام الخصم، والشرط الثالث أن تصاغ المعاني صوغاً حسناً وترتب على سياق محكم ليجذب السامع وتنمي فيه الرغبة في حل المشكل .

وهذه المجموعة من المفاخرات اخترت لها عنوان « المفاخرات الباهرة بين عرائس متنزهات القاهرة » .

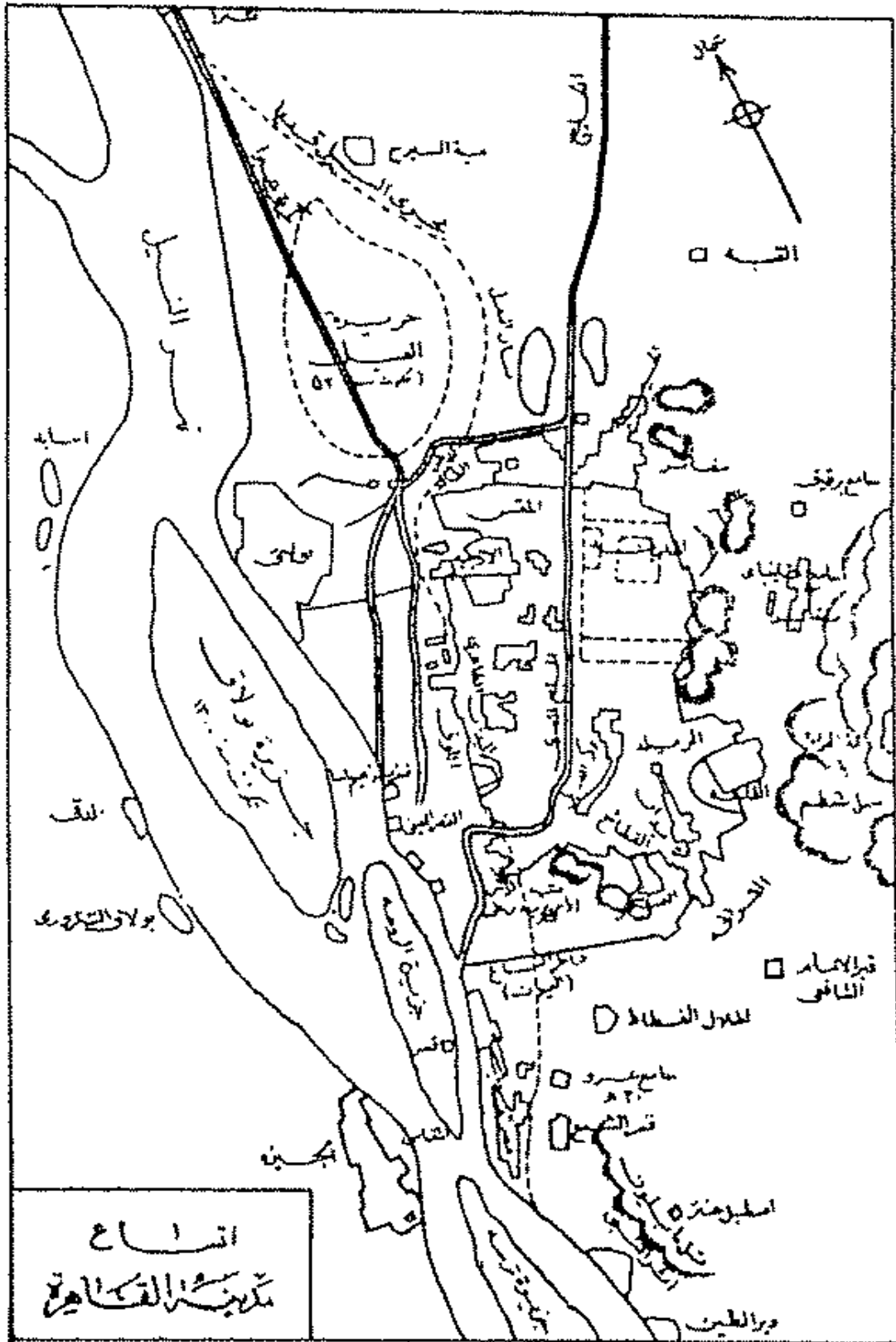
وهي تتناول أربع مفاخرات : الأولى بين بركة الرطلى والجسر، والثانية بين الجسر والجزيرة الوسطى، والثالثة بين قناطر الوز والزاوية الحمراء والرابعة بين مصر القديمة وجزيرة الروضة .

وهي تنشر وتحقق لأول مرة، وسأوليتها بمجموعات أخرى في مجالات شتى إن شاء الله عسى أن تعطينا صورة واضحة للون أدبي هو أدب المفاخرات والمناظرات الذي لم يكتب وينشر عنه إلا القليل .

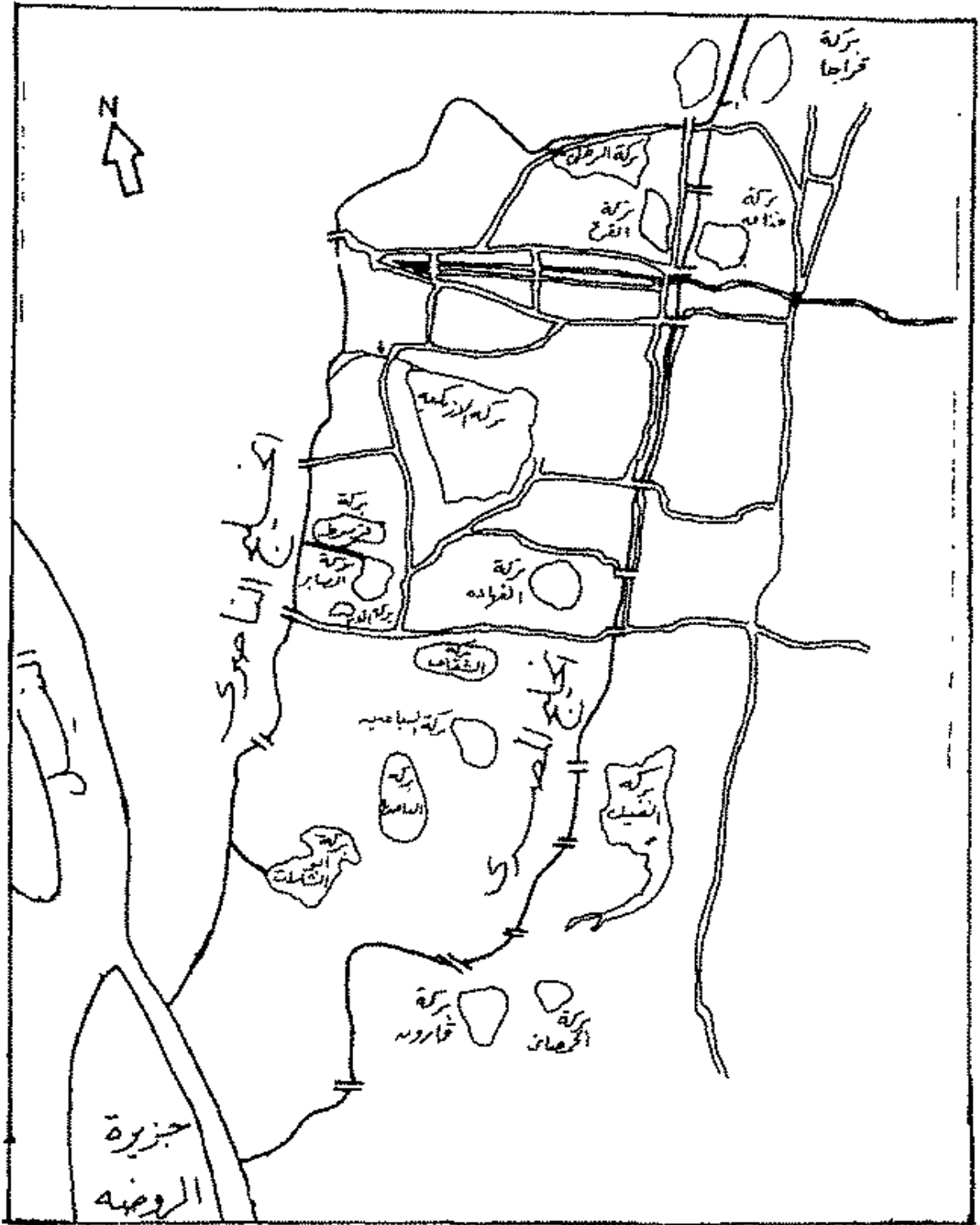
والله ولي التوفيق

محمد الششتاوى

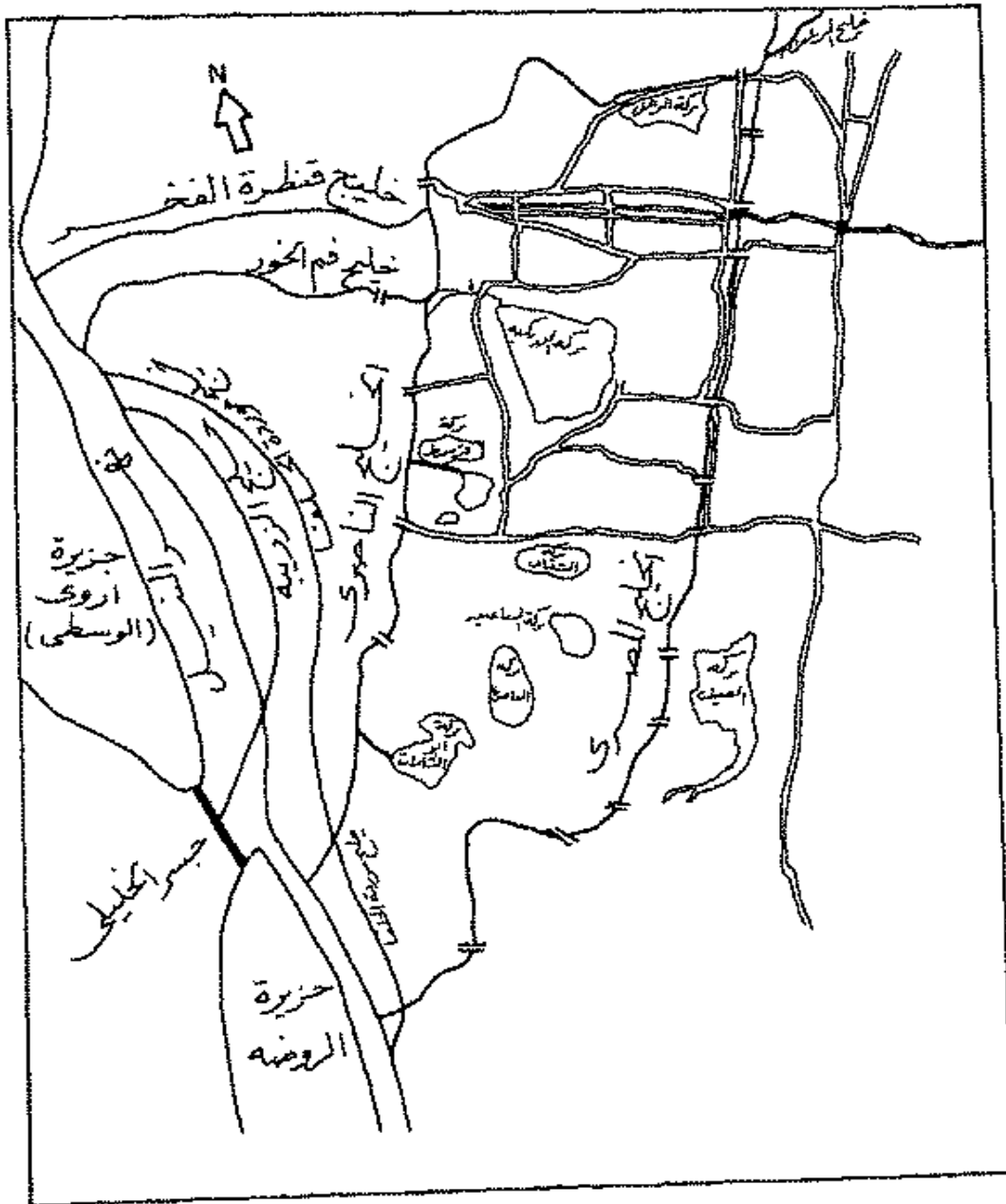
المفاخرة الأولى
مفاخرة بركة الرطابي والجسر



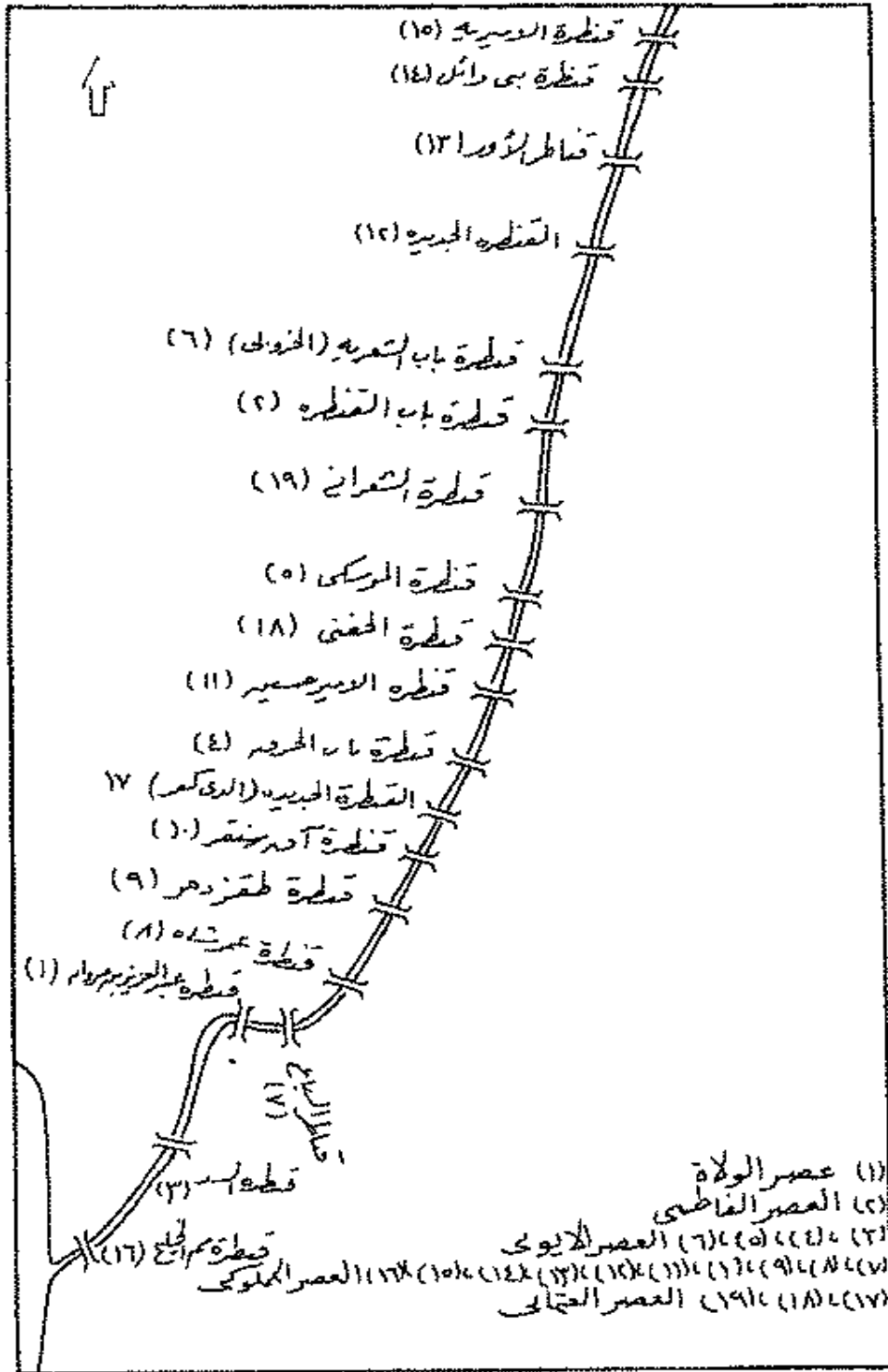
(شكل ١) اسماع مدينة القاهرة في العصر المملوكي
 عن : عبد الرحمن زكي ، القاهرة تاريخها وآثارها ، ص ١٥٥



(شكل ٢) برك القاهرة في العصرين المملوكي والعثماني



(شكل ٣) خليجان القاهرة في العصر المملوكي



(شكل ٤) ترتيب القناطر على الخليج المصري والعصور التي أنشئت فيها

أولاً :دراسة تاريخية لبركة الرطلى والجسر عليها

فى عام ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م أمر السلطان الناصر محمد بن قلاوون بحفر خليج من النيل وتوصيله بالخليج الكبير ومساره غرب وشمال القاهرة وفمه من موضع غائر على النيل فى موردة البلاط ومساره يمر بموضع الميدان الظاهرى الذى كان الناصر محمد قد حوله إلى بستان ثم يمر بعد ذلك إلى خط بركة قرموط ثم ظاهر باب البحر ويمر من هناك على أرض الطباله فيصب فى الخليج الكبير (١).

وبدأ العمل فى أول شهر جمادى الأولى سنة ٧٢٥هـ وأنجز فى مدة شهرين فقط فى آخر جمادى الآخرة سنة ٧٢٥هـ، وجرى الماء عند زيادة النيل، وتم تسمية هذا الخليج باسم الخليج الناصرى نسبة للناصر محمد .

وبتحقيقنا لمسار هذا الخليج نجد أن فمه من النيل فى نقطة التقاء شارع عائشة التيمورية (الوالده باشا سابقا) بشارع كورنيش النيل بجاردن سيتى، ومسار الخليج شارع القصر العينى فشارع يوسف الجندى (الحوياتى سابقا) فشارع طلعت حرب (شارع سليمان باشا) فشارع عربى فشارع رمسيس حتى يصل إلى المستشفى القبطى ثم ينعطف من

(١) القرزى، الخطط ج ٢ ص ١٤٥، السلوك ج ٢ ص ٢٦١.

هناك شرقاً حتى يصل إلى شارع خليج الطوابة فشارع الظاهر حتى ينتهى إلى شارع الخليج المصرى (شارع بورسعيد حالياً) الذى حل محل الخليج الكبير حيث كان التقاء الخليجين (١).

وهذا المسار هو المسار المعدل للخليج الناصرى عما كان مقرراً أولاً، حيث كان من المفروض أن يستمر مساره فى شارع رمسيس حتى يتقابل مع الخليج الكبير فى النقطة التى تتمثل الآن بأسفل كوبرى غمره، وهذا التعديل حدث لأن الأمير بكتمر الحاجب التمس من المهندسين المشرفين على حفر الخليج الناصرى اجراء هذا التعديل فى مساره ليسير باتجاه الشرق فى محاذاة شمال بركة الرطلى التى كانت تجرى فى اقطاعه من ضمن أرض الطبالة (٢).

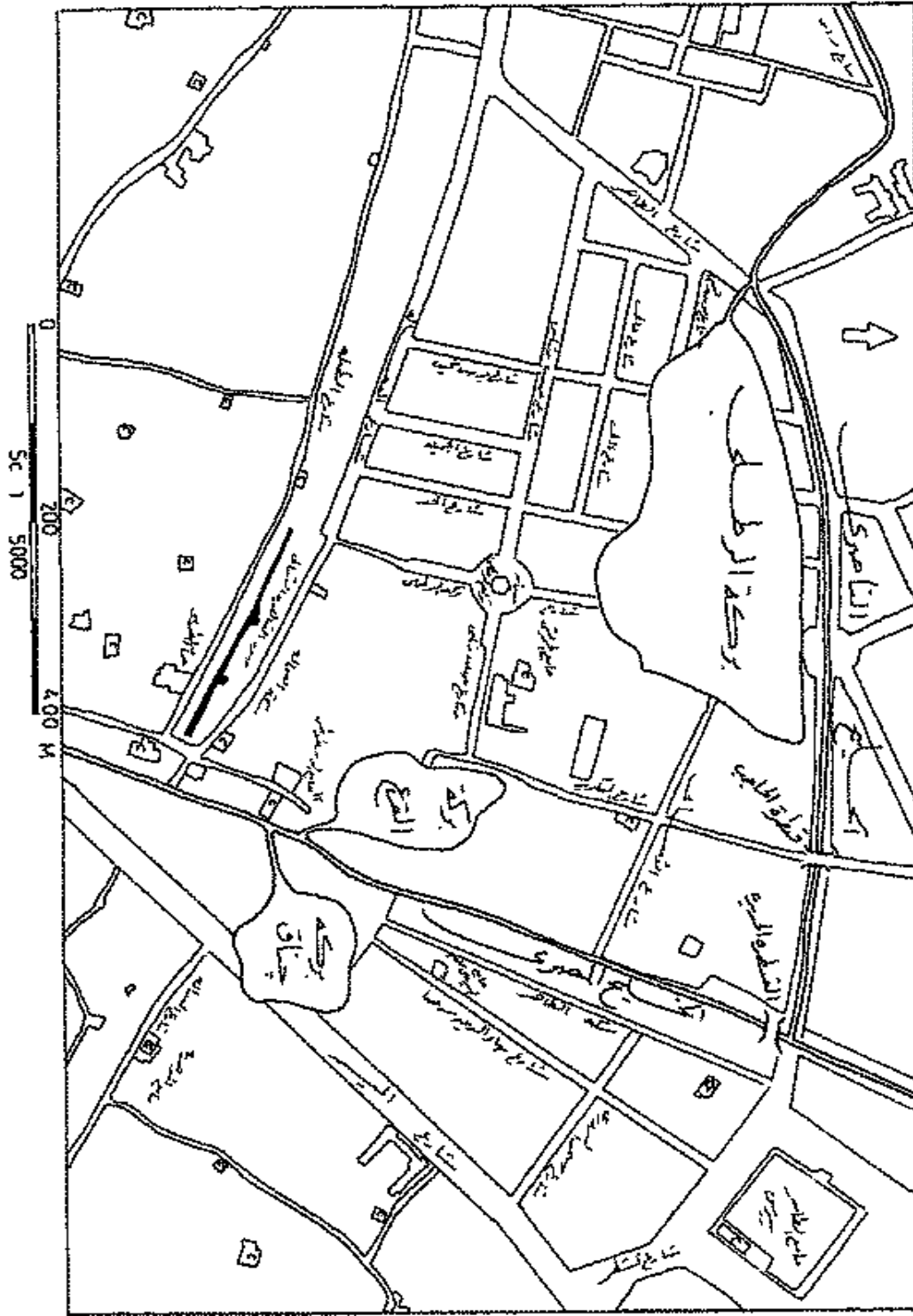
لذا عمر الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب جسراً بين البركة والخليج وسمح للناس بالبناء عليه وكان ذلك الجسر من أنزه بقع وفُرج القاهرة لأنه يشرف من ناحية على الخليج ومن الناحية الأخرى على البركة فحفل الجسر بالقصور المنيفة والمناظر الرائعة التى تجتمع الناس تحتها وتمر بحافة الخليج للنزهة، وأصبح الخليج الناصرى حسبما ذكر «المقرىزى» « . . موطن افراح ومنازل لهو ومغنى صبايات وملعب أتراب ومحل تيه وقصف بما يمر فيه من المراكب وفيما عليه من الدور » (٣) وموضع الجسر الآن بمثله شارع الظاهر بالقاهرة.

(١) عن الخليج الناصرى بالتفصيل انظر

محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى .

مخطوط ماجستير، كلية الآثار جامعة القاهرة، ١٩٩٤، ص ٢٩٧ . ٣٠٦ .

(٢) المقرىزى، الخطط ج ٢ ص ١٦٢ . (٣) نفس المصدر ص ١٤٥ .



(شكل ٥) موقع وحدود برك الرطل والقصر وجناق بالقاهرة

أما عن بركة الرطلى فقد كانت من أحسن متنزهات مصر فى العصر المملوكى وكانت تشغل الجزء الشمالى من أرض الطبالة التى تشغلها الآن المنطقة التى تحد من الشرق بشارع الخليج المصرى ومن الشمال بشارع الظاهر فشارع وقف الخربوطلى وما فى امتداده حتى يتقابل مع شارع مهمشا ومن الغرب بشارع غمره إلى ميدان رمسيس الآن ومن الجنوب بشارع الفجالة وبسكة الفجالة، ويدخل فى نطاق أرض الطبالة الآن حى الفجالة وجزء من حى الظاهر وجزء من حى الشرايبة (١).

وكان طول بركة الرطلى نحو ٣٥٠ مترا ومتوسط عرضها ١٠٠ متر ومساحتها نحو تسعة أفدنة، وقد ردمت البركة فى مدة حكم الخديوى إسماعيل أيام نظارة على باشا مبارك لديوان الاشغال وتحولت أرضها حينئذ للبناء. ويشغلها الآن المنطقة المحصورة بين شارع الظاهر شمالا وغربا وشارع غالى وما فى امتداده جنوبا وخط رأسى موازى لشارع البكرية شرقا.

وعرفت البركة أولا باسم بركة الطوابين من أجل أنه كان يعمل بها الطوب ثم عرفت بركة الحاجب بعد سنة ٧٢٥هـ نسبة إلى الأمير بكتمر الحاجب المتوفى سنة ٧٣٨هـ / ١٣٣٧م الذى كان من كبار أمراء السلطان الناصر محمد بن قلاوون وكانت البركة هى وباقى أرض الطبالة تجرى فى إقطاعه (٢). أما عن تسميتها ببركة الرطلى الشائعة عليها فترجع إلى أنه كان يوجد شرق هذه البركة زاوية بها نخل كثير وفيها شخص يسمى

(١) عن أرض الطبالة وبركة الرطلى بالتفصيل انظر :

محمد الششتاوى، متنزهات القاهرة ص ٢٣٨ - ٢٥٠.

(٢) التقريرى، الحفظ ج ٢ ص ١٦٢.

خليل الرطلى كان يصنع صنج الارطال التى يزن بها الباعة فسمها الناس بركة الرطلى نسبة إليه وكان ذلك زمن الناصر محمد أيضا وقد توفى الرطلى سنة ٧٤٢هـ / ١٣٤١م ودفن فى زاويته التى حولت لجامع بركة الرطلى وعملت له قبة فيه (١).

أما عن العمران حول البركة فى العصر المملوكى فنقول أن ما حولها كان خاليا من البناء وإنما أرض زراعية فقط وكانت البركة تمتلأ بالماء فى فصل الصيف فقط أيام الفيضان وفى الشتاء يجف منها الماء وتزرع بالقرط (البرسيم) وغيره، فلما حفر الخليج الناصرى شمالها صارت البركة تملأ كل عام منه فى موسم الفيضان بعد أن كانت تملأ من الخليج الكبير (المصرى) من عند طرفها الغربى وعمل بكتمر الجسر وعُمر بالدور التى تشرف من ناحية على البركة ومن الناحية الأخرى على الخليج وتتابع الناس فى البناء حول البركة حتى لم يبق حولها مكان خال (٢).

واستمرت البركة عامرة حتى تعرضت كغيرها من انحاء القاهرة وظواهرها للمحن والأحداث الجسيمة التى بدأت فى سنة ٨٠٦هـ / ١٤٠٣م حين قصر النيل ولم يف وشرقت البلاد ووقع غلاء عظيم فخرت بقاع القاهرة وخصوصا ظواهرها، إلا أن هذه الأزمات لم تدم طويلا وعاد التعمير للبركة كما كان واستمر بناء الدور والقصور والمناظر ذات المقاعد والطاقت المشرفة على البركة.

ولبركة الرطلى جامع عامر يذكر الله تعالى إلى الآن يقع شرقى البركة فى موضع زاوية الرطلى وقد أنشئ لما عمرت البركة وكان مجاوراً لبيت

(١) المقرئى، الخطط ج ٢ ص ١٦٢، ٣٢٦. ابن أباس، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٤٥٦.

(٢) المقرئى، الخطط ج ٢ ص ١٦٢، ١٦٦.

الوزارة وحظى من الوزراء بعناية فائقة، ولما مات الشيخ يوسف الحريشى أحد اتاع الطريقة العنانية سنة ٩٢٤هـ / ١٥١٨م دفن بالجامع فعرف باسمه من يومئذ (١).

أما عن الدور والقصور حول البركة فقد كانت تنتمى لطبقة متميزة فى المجتمع المصرى فى العصر المملوكى حيث سكن حولها أصحاب سلطة ونفوذ وقلما سكنها أحد من العامة، فعلى شاطئ البركة بيت الوزارة يسكنه من يلى الوزارة فى العصر المملوكى وكان يجاور الجامع (٢) كذلك بنى أصحاب الوظائف الهامة قصورا عظيمة حول البركة من ماشرى الدولة من الوزراء والاستادارات والأمراء والكتاب والقضاة والمحاسبون .

وكانت توجد فى العصر المملوكى عائلات بعينها تتوارث الوظائف الهامة فى الدولة متخذة من بركة الرطلى مقراً لها مثل عائلة ابن الجيعان الذين استمروا أكثر من مائة وعشرين سنة يتوارثون وظيفتى ديوان الجيش والحزانة، وكانت دورهم وقصورهم بجوار جامع البركة وقاموا بإصلاحه عدة مرات (٣)، وكذلك سكن البركة عائلة ابن مزهر وقد توارثوا وظيفه كاتب السر وكانت لهم مكانة مرموقة فى العصر المملوكى (٤).

وكانت قصور وبيوت البركة شامخة البنيان حافلة بالزخارف والأثاث

(١) محمد الشتاوى، مترهات القاهرة ص ٢٤٢ - ٢٤٣ .

(٢) ابن إياس، ندائع الزهور ج ٢ ص ٤١٦ .

(٣) انظر: السخاوى، الصوء اللامع ج ١١ ص ٣ - ٤ ، اس إياس ، ندائع الزهور ج ٣ ص ١٣٣ ، ح ٥

ص ٢٩٩ - ٣٠٠ ، ٤٥٦ ، ٤٨٧

(٤) ابن إياس ، ندائع الزهور ج ٣ ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، ح ٤ ص ٦٧ .

والمفروشات الأنيقة حتى أن أحد البردارية (١) أنشأ بيتاً على بركة الرطلى
غَرِمَ عليه نحو خمسين ألف دينار (٢).

وكان السلاطين ينزلون أحياناً ضيوفاً على الوزراء والقضاة فى بركة
الرطلى ويقضون أوقاتاً هناك كالأعياد والمهرجانات العامة، منهم السلطان
المؤيد شيخ الذى كان ينزل فى بيت صلاح الدين خليل بن الكويز ناظر
ديوان المفرد فى سلطنته (٣) وكذلك السلطان الغورى الذى كان ينزل فى
ضيافة المحتسب الزينى بركات بن موسى (٤).

ومما يدل على نفوذ وثراء من كان يقطن حول البركة فى العصر
المملوكى أنه فى جمادى الأولى سنة ٩١٧هـ / ١٥١١م صدر أمر
للسلطان الغورى بمنع جماعة من مباشريه من السكن بالبركة بحجة
تضييع الأموال هناك، فلم يسكن بها أحد من المباشرين ولا القضاة فى
هذه السنة وأهملت البركة آنذاك. وقلّت فيها البهجة ولم يسكن بيوت
الجسر إلا القليل (٥) ويلاحظ أن السكن بالبركة كان مرتبطاً بشكل كبير
بأيام النيل وامتلاء البركة بالماء حيث اعتبرت مصيفاً.

(١) البردارية مردها بردار وهو الذى يكون فى خدمة مباشرى الديوان فى الحملة، متحدثاً على اعوانه
والمصرفين به. القلقشندى، صبح الأعشى ج ٥ ص ٤٦٨.

(٢) اسم هذا البردار هو الحاج سعد، وقد صدره السلطان المؤيد شيخ فى خمسين ألف دينار فى شوال
سنة ٨١٧هـ / ١٤١٤م، وقد أطلق على الدرب الذى فيه هذا البيت اسم درب الحاج سعد حسبما
ورد فى وثيقة الأمير عبد الغنى العخرى.

انظر: العيسى، عقد الجمان ص ٢٠٨، ابن إياس، بدائع الزهور ج ٢ ص ١٧.

(٣) المقرئى، السلوك ج ٤ ص ٥٢٨، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ١٤ ص ٩٤.

(٤) ابن إياس، بدائع الزهور ج ٤ ص ٢٧٤.

(٥) نفسه ص ٢٣٤.

ومن أمثلة الشخصيات الهامة التي ملكت الدور والأبنية على البركة الأمير عبد الغنى الفخرى الاستادار المتوفى سنة ٨٢١هـ / ١٤١٨م وهو صاحب المدرسة المعروفة باسم جامع البنات بشارع الخليج المصرى (بورسعيد) (أتر رقم ١٨٤) حيث كان له بناءان متقابلان يشرفان من ناحية على بركة الرطلى ومن الناحية الأخرى على الجسر، كما كان له بناءان آخران على البركة بدرب الحاج سعد (١).

ومن كبار القضاة القاطنين بالبركة القاضى عبد الباسط ناظر الحيوش وهو صاحب المدرسة الباقية بالحرفش (أتر رقم ٦٠) وكان يزل عنده القضاة ويقضون أمسيات بداره خاصة أيام النيل (٢).

وكان شيخ الإسلام الحافظ بن حجر العسقلانى يملك داراً على بركة الرطلى أقام فيها رمنا (٣) وأيضاً كان للقاضى موفق الدين ناظر جيش الشام المتوفى سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م بيت بدرب الطباخ سركة الرطلى كان ملتقى لاجتماع القضاة (٤).

ومتال للبيوت الحافلة التي كانت بالبركة ما ذكره «ابن إياس» فى ترحمته للسلطان خشقدم (٨٦٥ - ٨٧٢هـ / ١٤٦١ - ١٤٦٧م) إن من عيوبه كثرة المصادرة إذ أنه قد صادر الصحاب علاء الدين بن الأهناسى حتى أنه فك رخام بيته ببركة الرطلى ونقله إلى تربته بالصحراء (٥).

(١) وثيقة الأمير عبد الغنى المحرى رقم ٧٢ المحفوظة بدار الوثائق القومية.

(٢) العيى، عقد الحمان (نشر الرهراء) ص ٣٠٣.

(٣) السخاوى، الثمر المسبوك ص ٢١١، ابن أمى السرور البكرى، الرهة الرهية (مخطوط) ورقة ٧٥.

(٤) ابن الصيرفى، ابناء النهصر ص ١٥٩، السخاوى، الضوء اللامع ج ٥ ص ٧.

(٥) بدائع الزهور ج ٢ ص ٤٥٧.

ومن كبار رجال الدولة المملوكية المقيمين ببركة الرطلى على بن قمتى
رأس نوبة الدوادار الكبير (١).

وقد ذكر «ابن إياس» أن بعض ضيوف السلطان قايتباى كانوا ينزلون
ببيوت البركة مثل أمير مكة الذى كان ينزل فى بيت أم ناظر الخصاص
يوسف على بركة الرطلى وخصوصا أيام امتلاء البركة بالماء (٢).

ومن الشخصيات التاريخية التى شهدت داره على بركة الرطلى أياما
سجل المؤرخون أحداثها لأهميتها المحتسب الزينى بركات بن موسى (٣).

(١) ابن العسيري، انباء النهصر ص ٤٣٨ .

(٢) بدائع الزهور ج ٣ ص ٩٣ .

(٣) نفسه ج ٤ ص ٢٧٤ .

التنزه بالجسر والبركة فى العصر المملوكى

بالرغم من أن سكان بركة الرطلى والجسر يمثلون طبقة متميزة فى مجتمع العصر المملوكى إلا أن العامة وبقية طوائف الشعب كانوا يشاركونهم فى التنزه والتفرج والاحتفال بالبركة، وكان الاحتفال هناك على مدار العام ففى الصيف والحريف يكون فيضان النيل فتمتلئ البركة بالماء وتدخلها مراكب النزهة، وفى فصل الشتاء والربيع تزدهى البركة بمنظر أخاذ من نمو الأزهار والمزروعات بها وخصوصا منظر القسوط (البرسيم) والكتان مما هيج أحاسيس الشعراء فأفاضوا بالكثير من الأتعار فى وصف البركة وما حولها.

وكان الناس يأتون البركة أيام أجازاتهم وخصوصا أيام الجمع والآحاد حيث يجتمع هناك عالم لا يحصى وتدور بهم مراكب النزهة المسماة بالشخاتير تدخل البركة عن طريق الخليج الناصرى والخليج الكبير فتدور بارجائها، وتموج البركة بالنشاط والحياة بما عليها من قوارب وما بها من أسواق عائمة بجميع أنواع المأكوت والمشروبات (١)، وقد تعددت مظاهر

(١) المقرئى، الخطط ج ٢ ص ١٦٢، ابن تبرى ردى السحوم الزاهرة ج ١١ ص ١٧١.

الاحتفال بالبركة من السياحة بها واقامة مخيمات بربوغها وسط حلقات تضم اعلام الغناء والموسيقى وأرباب الألعاب وخيال الظل، وتقام احراقات نعط هائلة، وكانت المراكب والبيوت حول البركة توقد ليلا بالقناديل فتحيل الليل نهارا.

وقد توفرت للمتزهين بالبركة حرية كبيرة لم تتوفر لهم داخل المدينة ففشت بينهم الأمراض الاجتماعية وساعد جو الثراء حولهم فى ذلك فأقيمت الليالى ذات الترف الشديد وحفلات بمجالس شراب الخمر وتعاطى المواد المخدرة التى كانت تزرع بالبركة وحولها بأرض الطبالة، وشاركت النساء الرجال واختلطن بهم وهن متسرجات ويحدثنا «المقرىزى» إنه أدرك التنزه بهذه البركة منذ سنة ٧٧٠هـ حيث كانت بمنأى عن الأحداث التى تدمر البلاد والناس يستمتعون بأيامهم هنالك غاية الاستمتاع وذكر «المقرىزى» أيضا أن البركة تأثرت بما حدث بمصر من المحن التى بدأت سنة ٨٠٦هـ (١) إلا أننا نرى أن هذا التأثير كان مؤقتا وسرعان ما عادت البركة كما كانت وأعمر من قبل.

وقد حرص بعض السلاطين على الخروج والتفرج بالبركة ولا سيما المؤيد شيخ أكثر السلاطين خروجا وكان يستضيفه هناك صلاح الدين بن الكويز ناظر ديوان المفرد فى بيته على البركة ويمد له الاسمطة الحافلة (٢).

وكان السلطان قايتباى ينزل ضيوفه هناك وعلى سبيل المثال نزل قاضى مكة وأخاه وابن أميرها ببيت أم ناظر الخاص يوسف على البركة ورتب

(١) المخطوط ج ٢ ص ١٦٢

(٢) المقريرى، السلوك ج ٤ ص ٥٢٨، ابن عمري بردى، السحوم ج ١٤ ص ٩٤.

لهم ما يكفيهم من اسمطة وغير ذلك فأروا في ذلك البيت بهجة أيام النيل حتى سافروا (١).

ومثال للأيام الحافلة التي شهدتها بركة الرطلى ما حدث في شعبان سنة ٨٨٦ هـ بمناسبة ختان أولاد القاضي كاتب السراين مزهر ببركة الرطلى وكان له مهم (احتفال) حافل جداً وحضر عنده جماعة من الأمراء المقدمين والعشرات وحضر عنده جمجمة بن عثمان (٢) وبات عنده وقد وصف «ابن إياس» ذلك الاحتفال وصفاً دقيقاً إذ كان شاهد عيان للأحداث في نهاية الدولة المملوكية وبداية الدولة العثمانية بمصر فقال:

« وكان النيل في أواخره فأمر كاتب السراين سكان البركة بأن يوقدوا في البيوت وقدة حافلة وشرع يرسل لكل بيت في البركة عشرة أرطال زيت وطبيلية فيها أكل فاخر من طعام ذلك المهم فاحتفلوا في الوقدة وعلقوا في الطيقان الأحمال والتنانير والأمشاط معمرة بالقناديل حتى كانت البركة تضئ بالنور ويكاد الإنسان أن يدخل الخيط في خرم الأبرة من عظم ضوء النور، وأحرق حراقة نطف حافلة لم يسمع بمثلها حتى خرجت البنت في خدرها بسبب الفرجة على ذلك وبلغ كرى كل مركب أربعة اشرفية (٣) واستمرت هذه الوقدة وحراقة النفط ثلاث ليال متوالية حتى عد ذلك من النوادر التي لم يقع مثلها واجتمع بالبركة نحو أربعمئة مركب

(١) ابن إياس، بدائع الزهور ج ٣ ص ٩٣.

(٢) جمجمة هو أحو السلطان العثماني بيابزيد (٨٨٦. ٩١٨ هـ / ١٤٨١. ١٥١٢ م) حضر إلى مصر ومعه والدته وأولاده خوفاً على نفسه من أحميه السلطان أن يقتله وذلك أن البلاط العثماني اتبع عادة شيعية وهي أن من يتسلطن كان يبادر بقتل أخوته حتى لا يراحموه على العرش.

(٣) كرى = أحره، اشرفية أي دناسير اشرفية نسبة للسلطان الأشرف برسباي وهي من أجود الدناسير المملوكية وأعلها سعراً وقيمة.

موسوقة بالخلايق، وصار ابن رحاب المغنى عمال فى كل ليلة وسائر مغانى
 البلد من رجال ونساء وانطلقت ألسن النساء بالزغاريت وأنفق فى تلك
 الليالى من الأموال مالا يحصى حتى قيل ابتاع من عصفور الجبان على
 المتفرجين بنحو مائة وعشرين ديناراً حين مقلى وكذلك ابن الزبيق
 الحلوانى ابتاع منه حلوى بنحو ذلك، وقد خرجت الناس فى القصف
 والفرجة عن الحد وقد رسم السلطان للقاضى كاتب السر أن لا يبقى
 ممكناً فى هذا المهم لأجل الجمجمة ابن عثمان كونه كان حاضراً فى هذا
 المهم وفى هذه الواقعة يقول بعض الشعراء:

طابت على بركة الرطلى ليلتنا	حتى تباهت على الخلجان والبرك
حفت بضوء مصابيح رهمت وغدت	تضىء فى حدس الديجور والخلك
فكان لما تناهى حسن وقدتها	تخفى شمس الضحى فى دارة الفلك

وقال الشمس القادري:

تاه الانام بجنح الليل فاتخذوا	لهم دليلاً لذا الظلماء من اللهب
حتى كأن جلاليب الدجى رغبت	عن لونها وكان الشمس لم تغب (١)

ومن الأيام الحافلة التى شهدتها البركة أيام شهر ربيع الآخر سنة
 ٨٩٩هـ حينما عين السلطان قايتباى الأمير مامى بن خداد الدوادار الثانى
 بان يتوجه رسولاً إلى سلطان الدولة العثمانية « فتسرع مامى فى عمل

(١) اس إياس، بدائع الزهور ج ٣ ص ١٨٦-١٨٧.

ونلاحظ ما دقة اس إياس فى وصف تلك الأحداث الاجتماعية حتى إنه أمدنا ببعض أسماء الساعة
 التى فلما يأتى ذكرهم فى التاريخ الذى أرح للملوك والسلاطين غالباً
 ونلاحظ أن القادري اقتبس البيت الثانى من قصيدة أبى تمام فى فتح عمورية.

يرق (١) حافل وصنع له ردكا ببركة الرطللى فى زمن الشتاء وصار يوقد فى كل ليلة هناك وقدة حافلة وهرعت الناس إلى هناك بسبب الفرجة وعمّر الجسر وسكن به الناس أياما فى قلب الشتاء حتى عدّ ذلك من النوادر وكان يعمل هناك فى كل ليلة خيال ظل أو مغانى عرب أو ابن رحاب المغنى أو غير ذلك من الملاهى وكانت ليالى مشهودة فى القصف والفرجة حتى خرج الناس فى ذلك عن الحد وأقاموا على ذلك نحو من عشرين يوما ثم سافر الأمير ماماي « (٢) » .

أما السلطان الملك الناصر محمد بن قايتباى فكان ينادى فى سكان بركة الرطللى بأن يوقدوا بها وقدة سبع ليال متوالية « وصار ينزل فى المراكب ويطوف بالبركة هو وأولاد عمه » (٣) .

وشهدت بركة الرطللى احتفالات كبيرة زمن اللطان قانصوه الغورى وخصوصا أنها تضم بيوت الوزراء والأعيان وكبار رجال الدولة ومنهم على سبيل المثال القاضى بركات بن موسى المحتسب وقد حدث فى شهر جمادى الآخرة سنة ٩١٨ هـ / ١٥١٢م أن تغير خاطر الغورى على

(١) بوق كلفمة تركية معناها سلاح . انظر

أحمد السعيد سليمان، تأصيل ماورد فى تاريخ الخرمى من الدحيل ص ٢١٠ .

(٢) ابن إياس، مدائع الزهور ج ٣ ص ٢٩٩ .

(٣) نفسه ص ٣٩٧ .

ويذكر ابن إياس عن الناصر محمد بن قايتباى أنه كان أهوجا فى تصرفاته وأفعاله وكانت أيامه كلها قمر وقد ضرب ابن إياس مثالا على أنه كان إذا رأى امرأة جميلة فى بيتها بركة الرطللى يهجم عليها ويطلع لها من الطفاقة ويأخذها عصا ويضرب روجها بالمقارع فى وسط بيته فارتأت الناس منه . كما ذكر أيضا أنه كان يحالط الأوتاش وكان به طيش ورعونة وخفة وسعه، ومن الأمور العريسة التى كان يفعلها أنه جعل له مركبا فى البحرة التى بالقاعة التى بالقلعة ومسح فيها حلوى وفاكهة وجوز مقلى وكان يرل بعه فى المركب ويبيع كما يبيع البياعون فى بركة الرطللى .

انظر : مدائع الزهور ج ٣ ص ٣٥٦ ، ٣٩٧ .

الزيني بركات لشجاره مع الوزير الجمالى يوسف، فحبسه ثمانية أيام ولكنه أفرج عنه بعدها وخلع عليه كاملة صوف بصمور (١) « ونزل من القلعة فى موكب حافل ومعه جماعة من أرباب الدولة فزينت له القاهرة ووقدت له الشموع والقناديل على الدكاكين وتخلق الناس بالزعفران حتى زينت له بيوت بركة الرطلى بالشدود الحرير والكوامل الحرير الملون فعلمت فى الطيقان وانطلقت له النساء بالزغاريت ولاقتة الطبول والزمور ومغاني النساء وكان ساكنا ببركة الرطلى فى أيام النيل وكان الزيني بركات محببا للناس فى أيام ولايته على الحسبة .. » (٢).

ومن الأيام المشهودة التى عاشتها البركة أيام شهر شعبان سنة ٩١٩هـ / ١٥١٣م فقد صدر أمر سلطان بالزينة والاحتفال بالقاهرة لأجل عافية السلطان من مرض ألم بعينه وكان الاحتفال عظيما ببركة الرطلى لأن الزيني بركات المحتسب كان ساكنا بها فأشهر الزيني « المسادة لسكان بركة الرطلى بأن يصنعوا بها وقدة حافلة ويزينوا الطيقان لأجل عافية الملك فانطلقوا سكان بركة الرطلى بالزغاريت وعلقوا فى الطيقان الشدود الحرير الأصفر والكوامل الحرير الملون ودارت الطبول والزمور فى المراكب يهنوا أعيان الناس من سكان البركة بعافية السلطان، ثم أن سكان البركة شرعوا فى أمر الوقدة فعلقوا فى الطيقان أحمال وأمشاط فيها القناديل فاحتفلوا سكان البركة بوقدة عظيمة ثلاث جمع متوالية وصارت فى كل ليلة تدور المراكب بالمتفرجين ويقع بالبركة من القصف والفرجة مالا يحصى وصفه ولاسيما قد صار أمرا سلطانيا وكان النيل فى أواخره فخرج الناس فى

(١) كاملة صوف بصمور هى عباءة صوف مبطنة براء الصمور (حيوان الصمور).

(٢) اس إياس، ندائع الزهور ج ٤ ص ٢٧٤ - ٢٧٥.

ذلك عن الحد وصار يقع في البركة كل ليلة أمور غريبة من سماع مغنى لطيفة ووقدة ونفوط تحرق وأشياء حافلة» (١).

واستمرت البركة موضع نزه واحتفالات عامة في العصر العثماني وإن كانت لا ترقى إلى العصر المملوكي لتراجع العمران بها واندثار عمارة الجسر آنذاك (٢).

وقد ارتبط كل من الجسر والبركة ببعض الأمراض الاجتماعية في العصر المملوكي مثل تعاطي المخدرات والحمور والفساد الخلقى، وكان الرباط وثيقا بين البركة والمخدرات وعلى رأسها الحشيش الذي عانت منه مصر والمصريون كثيرا ولا تزال تعاني من مآسيه وتبعاته (٣).

وقد انتشرت زراعة شجرة الحشيش في بركة الرطلى وأرض الطبالة وفشت هذه الشجرة في عصر المماليك « وولع بها أهل الخلاعة والسخف ولوعا كبيرا وتظاهروا بها من غير احتشام» (٤) ويرجع سبب ذلك إلى سماح الدولة آنذاك بزراعته نظراً لما قد يعود عليها من ضريبة وانتشر إلى جانب الحشيش الأفيون الذى عرفه المصريون في العصر المملوكي واستمر سائداً (٥).

وقد قيل في زراعة بركة الرطلى والجنينة المجاورة لها بالحشيش عدة أشعار منها قول الشاعر:

(١) نفسه ص ٣٢٣ - ٣٢٤.

(٢) محمد الششتاوى، متزهات القاهرة ص ٤٧٦. ٤٧٧.

(٣) لمريد من التفاضيل انظر محمد الششتاوى، متزهات القاهرة ص ٥٢٦. ٥٤٥.

(٤) المتربى، الخطط ج ٢ ص ١٢٦.

(٥) سعيد عاشور، المجتمع المصرى فى عصر سلاطين المماليك ص ٢٣٠.

بمصر لأهل اللهو والتهيه بركة
ويبلغ رطلا كل من رام أرضها

وقول الشهاب المنصوري :

كس بالجنيئة من قتيل حشيشة
وهبت له الخضراء من أفعالها

وقوله فيها أيضا :

كس بالجنيئة من أصم أبكم
أشبهه في خلقه بابن آدم
يحاول منه الناس رد جوابهم
أيصفي بلا سمع أيومي بلا يد

تولع فيها بالحشيش أولو الرطخ
ومن أجل هذا سميت بركة الرطلي^١

لايستفيق ولا ينفخ الرطخ
آذان أطروش وعين ضمر^٢

ورحلاه في قيد وعيناه في قفا
محازا وفي أكل الحشيشة بالحا
وكيف يرد القول من مات بالة
أيرنو بلا عين أيمتسى بلا رجل^٣

وارتبطت بركة الرطلي بشرب المسكرات مثلما ارتبطت بالخد راد
وقد قال الشهاب المنصوري في ذلك :

دعوتك فانهض مسرعا يا أخا الفضل
فقد سلّ كفّ الخصب سيف خليجه
وقد مدّت الأرواح أيدي غصونها
لشرب أرتالا على بركة الرط
ليضرب عنق الجذب أو هامة الخ
إلى النيل تستحلى الماء وتستجلى

(١) ابن ظهيرة، المصائل الباهرة ص ٢١ .

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٦١ .

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٦١ .

(٤) نفسه ص ٦٠ .

وقال فى الجسر :

يدأى على شرب المدامة بالرطلى
فإن خفن من واش تسترن بالطل
مكسرة أحفان على صحة العقل (١)

وبى ليلة بالجسر فيها تجاسرت
وقد سنج الأرام فى ضوء بدرها
فقم نجتليها من غزال مسلط

(١) نسه ص ٦١

ثانيا : تحقيق المفاخرة وتقييمها

أ- التحقيق :

تعرفت على هذه المفاخرة لأول مرة سنة ١٩٨٨م أثناء تحقيقي لكتاب النزهة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية لابن أبي السرور البكري الذي ذكرها في حديثه عن متنزهات القاهرة دون أن يذكر مؤلفها، وحتى أحقق هذه المفاخرة تحقيقا وافيا هي وغيرها من المفاخرات التي نحن بصددنا بحثت في جميع مخطوطات دار الكتب المصرية ومخطوطات معهد المخطوطات العربية بالقاهرة فلم أجد إلا نسخة أخرى للمفاخرة ضمن مجموعة من المفاخرات بخط يوحنا بن يوسف وارسى الفرنسي ترجع لسنة ١٨٤٠م، وهي تحمل رقم ١٥٨٦ أدب، تأليف عر الدين المقدسي ولعله « محمد بن علي بن عبد الرحمن بن محمد بن سليمان . المقدسي، عز الدين (٧٦٤ - ٨٢٠هـ) وأقول أن المقدسي هذا جامع لبعض تلك المفاخرات والمناظرات ولا ندرى بالضبط من هو مؤلف هذه المفاخرة .

وقد اعتمدت على هذه النسخة أساسا للنشر والتحقيق لأنها كاملة

ونادرة الأخطاء وهي تقع في خمس عشرة صفحة بخط نسخ جميل،
ومسطرتها خمسة عشر سطرًا في الصفحة الواحدة.

أما المفاخرة داخل مخطوط النزهة الزهية فتقع في أربع ورقات (من
ورقة ٧٥ إلى ورقة ٧٩) داخل المخطوط ومسطرتها عشرين سطرًا وهي
بالخط النسخ الجميل، وقد درج الناسخ على استخدام الأسلوب الاملائي
المتبع في زمنه من حذف الهمزة من آخر الكلمات وتحويل الهمزة اللينة في
وسط الكلام إلى ياء، هذا في كلا النسختين، وفي النزهة كتب التاء
المربوطة تاءً مفتوحة وكتب حرف العلة حسب نطقه وليس حسب أصله.

وقد صححت الأخطاء الاملائية والنحوية بالمفاخرة ولم اشر إلا
لبعضها حتى لا أشقت فكر القارئ عن الموضوع، وقمت بالتعليق على
النص في الهوامش، أما عن الفهارس الخاصة بالتراجم والبلدان
والمصطلحات فجعلتها في آخر الكتاب.

أما عن زمن تأليف هذه المفاخرة فنرجح إلى أنها تعود إلى آخر القرن
١٥هـ / ١٥م بناءً على المعلومات التي حوتها وبالمقارنة مع باقي المفاخرات
المشابهة.

ب - التقييم

١ - التقييم الشكلي

نحن هنا أمام مفاخرة أدبية ذات طابع منتشر في العصر المملوكي يتميز
بالجمع بين الفصيح والعامي في نسيج درامي حاول فيه كاتبها أن يرضى

جميع الأطراف بالنسبة لمتذوقى الأدب فى العصر المملوكى، وقد عمد إلى الكتابة بأسلوب السجع الذى كان متعا آنذاك، وافتقرت المفاخرة إلى الصور البيانية والمحسنات البديعية نظرا لطبيعة موضوعها .

وقد درج الكاتب كغيره من معاصرين على اتباع الأسلوب الشائع بين أقرانه فى الكتابة من الاستشهاد بالقرآن الكريم والحديث النبوى والأمتال والأشعار ومحاولة توظيفها فى النص، وقد نجح هنا فيما يختص بالحديث عن متعلقات بركة الرطلى والجسر عليها من ارتباطهما بمعاقرة الخمر والحشيش .

وجاءت جمل المفاخرة مناسبة فى الطول والقصر والجرس الموسيقى مع توظيف الألفاظ فى مكانها، والطابع العام للمفاخرة هو طابع الحفة والهزل وقد بدأها بقوله « روى لهو عن خلاعة عن الطرب بن المحون بإسادهما عن حديث الماء المسلسل، المرفوع إلى كل نهر وجدول قال حكى الربيع . . » وهذا الطابع الهزلى نلاحظه فى جمل وعبارات وألفاظ المفاخرة . .

وجاءت بعض عبارات الكاتب سلسلة معبرة، ففى مجال الفخر قال على لسان الحسر فى المباهاة والتفاخر « . . فىنى أبو المحاسن واللطائف، والخلاعة والمقاصف، ونزهة الأحداق والمهيج، ومحل البسط والفرج، مربع الأنس فى الأوطان، ومرتع الغيد والغزلان . . » .

وقوله على لسان البركة فى ردّها على الجسر « . . فأنا ذات الوجوه الصباح والألسن الفصاح والنفوس النفايس والقادود الموايس والمنظر البهيج والروض الأريج والقصور المشيدة والسيرة الحميدة . . » .

وحين انتقل الكتاب إلى الدم والمعايبة بين المتخاصمين وصل الكاتب في تعبيره إلى أسلوب الردح بمفهومنا المعاصر على ألسن العامة مثال ما قاله على لسان الجسر « .. لقد ارتقيت مرتقا صعبا يا بركة القراميط ومأوى أيام نشوفك الأزيلط، ياقصعة شوربة بلا معالق، يا ذات الأحجار والخنادق .. » .

ويتصاعد الخط الدرامي ويبلغ الردح قمته وأشدّه حين يرد الجسر على البركة ويقول « .. أسرفتى فى الإطناب، ولى زمان أوقرك يا أخس القحاب يا حقرة يا نقرة، ياباهتة يا وجه السخرة، عامت فى أرحامك المراكب خاض فيك الراجل والراكب .. » .

ويختتم المؤلف المفاخرة بالصلح بين الخصمين على يد وليهما النيل ثم قصيدة فى مدح مصر.

٢ - التقييم الموضوعى

حوت هذه المفاخرة على حقائق ومعلومات هامة قد لا وجود بها كتاب للتاريخ يحوى مئات الأوراق . فهى تبين لنا دور النيل الذى كان - ولا يزال أساس لكل متنزهات مصر فهو الذى يمد برك القاهرة وخلجانها وبساتينها بالماء فتصير فى أبهى زينة وأجمل هيئة فى أيام فيضانه قبل أيام الاستقرار التى ترتبت على انشاء السدود والقناطر وتنظيم وسائل الري فى عصرنا الحديث .

وترسم لنا المفاخرة صورة اجتماعية للمجتمع المصرى إبان العصر المملوكى قليلا ما يتطرق إليها المؤرخون، فهى توضح لنا أن بركة الرطلى

والجسر عليها كأنما على قمة متنزهات مصر، وأوى إلى ربوعهما المتنزهون والمتفرجون والخلعاء والمتهتكون ودعاة اللهو والقصف للهو والترويح عن النفس، يجوبون في ربوع البركة بمراكب النزهة المعروفة حينئذ بالشخاتير يمرحون ويلهون وينعمون بما لذ وطاب من الأطعمة والأشربة والحلاوات التي بحوزتهم بالإضافة إلى الأسواق العائمة لمراكب الباعة بينهم وعلى شواطئ البركة والجسر، وسط مظاهر تسلية وإثارة من الألعاب الشيقة التي تلعب هناك وحلقات الحواة والملاكمة والمصارعة وحلقات الغناء والطرب والموسيقى وغيرها .

وتوضح المناظرة صورة لطبقة سكان الجسر والبركة حيث أكدت ما سبق أن أوضحناه بالدراسة من تميز ساكني المتنزهات وخاصة البركة والجسر بين طبقات المجتمع فهم يمثلون الصفوة من الناس على رأسهم القضاة والعلماء وأصحاب المكانة والوظائف العليا في الدولة في العصر المملوكي مثل الوزراء والحجاب والنظار والمحتسبون وكبار الموظفين وليس أدل على ذلك من كون بيت الوزارة كان على البركة .

وكانت البيوت هناك عبارة عن قصور فخمة حافلة بالزخارف مفروشة بأعلى المفروشات والأثاث، وكانت هذه القصور تسكن بصفة خاصة في فصل الصيف وقت امتلاء البركة بالماء فهي تعتبر المصيف للقاهرة وكان أصحابها يملكون بيوتا وقصورا داخل المدينة .

ومما يحسب للمؤلف ذكره لبعض أسماء الباعة والحرفيين الذين يندر ذكرهم في المؤلفات التاريخية وكذلك بعض الأطعمة والحلاوات المملوكية مثل السنبوسك والخيطية والهيطلية واللبنية والماوردية والعصيد والفالودج وغيرها .

والمفاخرة ترينا بعض الأمراض الاجتماعية السائدة في العصر المملوكي إذ كانت المتنزهات وخاصة البركة والجسر مرتبطة بها إلى حد كبير إذ كانت عاملا هاما وسببا رئيسا في تفشى وانتشار تلك الأمراض انتشارا كبيرا بين العامة والخاصة ومن أهمها معاقره الخمر وتعاطى الحشيش الذى كان يزرع فى البركة وما حولها من أرض الطبالة ومن خلالها انتشر فى أنحاء مصر، بالإضافة إلى السلوك الخاطى المتمثل فى اختلاط الجنسين إذ كانت البركة والجسر قبلة المتنزهين والمتفرجين والخلعاء والمتهتكين ودعاة اللهو والقصف .

هكذا نرى صورة اجتماعية للمجتمع المملوكى من خلال تلك الصفحات القليلة .

ثالثا : النص مفاخرة بركة الرطلى والجسر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

روى لهو بن خلاعة عن الطرب ابن المجون بإسنادهما عن حديث الماء
المسلسل، المرفوع إلى كل نهر وجدول. قال : حكى الربيع فى زمن
الصفاء، عن النيل المبارك (١) أبى الوفا. قال : بينما (٢) أنا أقابل الناس فى
زمن الكسر بالجبر (٣)، وأهدى من كدرى الصفا إلى كل عالم وحبر، إذ

(١) (البارد) فى الأصل، والتصحيح من النزهة الزهية .

(٢) (بيتا) فى الأصل وفى النزهة أيضا

(٣) الكسر مقصود به كسر السد الترابى الذى يقع على فم الخليج الكبير (الخليج المصرى) عند حلول
وفاء النيل وحدوث الفيضان السنوى، ويكون ذلك إيدانا عند جميع الحلجان والشرع والبرك عماء
الفيضان لأن أمواجها تسد فى الشتاء وهى العملية المعروفة بالسدة الشتوية حيث يصل النيل حينئذ إلى
أدنى منسوب له وكان وفاء النيل يتم فى فصل الصيف وغالبا فى شهر أغسطس، وكانت علامة الوفا
وصول منسوب النيل فى مقياس النيل بجزيرة الروضة إلى ١٦ ذراعا، وكان يعبر عن كسر السد بالجبر
لأنه جبر لحواظر الناس وإيدانا بالجبر، وفى ذلك يقول الشاعر:

كسر الخليج وكان ذلك نعمة سرت قلوب العالمين لبشره
ومن العصائب والفرائب أنه جرت قلوب المسلمين لكسره

خالجت الخليج بجيش العرمم (١)، وبركت على ملاقاته الجسر الأعظم (٢)، فاقتنصت من بين أيديهما كل غزال شارد، ونصبت شرك النزهة لكل صادر ووارد، فقام الجسر عند ذلك على ساق، وأحدقت حوله البركة بالأحداق، وأشار إلى من خوف هجومى عليهما لكل بنان، وما منهما إلا نادى : الأمان الأمان، فعندها بلغت كلاماً منه فاستبشر (٣)، وألبستهما خلعتين طرازهما (٤)، من الزمرد الأخضر. فلما راق نسيمها، ورق أديمها، قام كل منهما يفخر على صاحبه بمفاخر، ويذكر ماله من المحاسن ويفاخر، فأول ما برز للمناظرة الجسر الخليج، وقد توشح ببرد من زهر الربيع، وقال :

أيتها البركة العميقة، واللجة الغريقة (٥)، لا تنطري إلى قصورك المشيدة، وداراتك البعيدة فيأني أبو المحاسن واللطائف، والخلاعة

(١) (خالجت الخليج بحشيش) في النزهة، العرمم: الشديد وجيش عرمم: حسن كثير * الخليج حفرة عمروس العاص فاتح مصر وواليتها من قبل خليفة المسلمين عمر بن الخطاب أمير المؤمنين في سنة ٥٢٣هـ / ٦٤٤م وسماه آنذاك خليج أمير المؤمنين نسبة إلى عمر بن الخطاب أمير المؤمنين الذي حفر أيامه وبأمره ليسهل نقل الزاد والتجارة إلى الحجارة خاصة بعد عام الرمادة هناك، وكان فم الخليج آنذاك شمال الفسطاط في النقطة التي يمثلها الآن التقاء شارع نوام بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصري سابقاً) ثم يمر الخليج بأراضي الشرقية والإسماعيلية مخترقاً البحيرات ويمتد حتى يصب عند القلزم (السويس) وقد عرف الخليج في العصر المملوكي باسم الخليج الحاكسي أو الخليج الكبير أو الخليج فقط، ويمثل مساره داخل القاهرة شارع بورسعيد.

(٢) الجسر الأعظم هو الجسر الذي كان يفصل بين بركة الفيل وبين بركة قارون ويمثله الآن شارع مراسينا (شارع الشيخ عبد الحميد النان حالياً) بالسيدة زينب.

(٣) (فاستبشر) في الأصل والنصحیح من النزهة.

(٤) اللجة المراد بها ما يخلع به أو يهديه ولي الأمر إلى الرعية أو الضيوف من الثياب وسجود، والطراز هو الرخرفة المقوشة سحوط الحرير أو بأسلاك الذهب أو الفضة لتزيين الثوب.

(٥) اللجة معظم المحر وتردد أمواجه (ح) لجمع والحاج، البحر اللجى: المتلاطم الأمواج.

والمقاصف^(١)، ونزهة الأحداق والمهيج، ومحل البسط والفرج، ومربع
الأنس في الأوطان، ومرتع الغيد والغزلان، وقد نصبت شراك اللحاظ
لمصارع العشاق، وقصورى مطالع بدور الآفاق، يستأنس بى كل غزال
نافد، ويهجع^(٢) فى كل طرف ساهر، يهتدى فى ظلام الشعور بضياء
أقمارى، هذا والسرور خليلى والماء بالخليج جارى^(٣)، قد أصبحت
تذكرة للجنان، وأنشد فى لسان حال الزمان:

يا حبيذا جسريه أقمار حسن تطلع
برياض حسن بديعة لسعين فيه مرتع

فلما سمعت البركة منه ذلك نظرت إليه بعين الغضب، وفوقت^(٤) من
قوس داراتها سهام العطب، وقالت له:

ياردى الطباع، وأخس البقاع، تفخر على بحشيشك الخسيس،
وتغزوني من الغواة بجنود إبليس، أين أنت من الدررة السننية، والهالة
القمرية، فأنا ذات الوجوه الصباح، والألسن الفصاح، والنفوس النفايس،
والقدود الموايس، والمنظر البهيج، والروض الأريج، والقصور المشيدة،
والسيرة الحميدة، فانظر إلى نسائك البارزات من الطيقان^(٥)، المعروضات
على الشيوخ والكهول والشباب والصبيان، فأنا ذات الستر الرفيع،

(١) قصف فى اللغة بمعنى أقام فى الطعام والشراب والترفيه، والقصف: اللهو واللعب والافتنان فى الطعام
والشراب والمقصف مكان للترفيه وتناول الطعام والشراب (ج) مقاصف.

(٢) (يهج) فى البرهة . (٣) (سارى) فى النزهة .

(٤) (فوقت) فى النزهة . وفى اللغة (فوق) الشيء، موقا وفوقا: علاه، وفوق السهم: وضع فوقه فى
الوتر ليرمى به، والفوق من السهم: حيث يثبت الوتر منه وله زمتان وهما حرفاه (ج) أفواق .

(٥) الطيقان جمع طاقه وهى الشباك أو النافذة، ومن المعروف ان كل كتاب التاريخ والوثائق المملوكية
استعملوا كلمة شاك وطاقه ولم تستعمل كلمة مشرية آنذاك إذ أنها وليدة العصر العثماني .

والحجاب المنيع، ذات القصور والإيوان، وكما قال في عين الزمان وأمام
الوقت الفصيح اللسان :

تسامت إلى افق المعالي بركة بمن حل فيها من أولى المجد والفضل
فإن تك يوماً سائلاً عن محلها فسل فلك الميزان عن بركة الرطلى

فلما سمع الجسر ذلك منها زاد حنقه وتنمر، وجدّ عن ساعده
وتشمر، وقال : لقد ارتقيت مرتقاً صعباً يا بركة القراميط، وماوى أيام
نشوفك الأزاليط (١)، ياقصعة شوربة بلا معالق، يا ذات الأحجار
والخنادق، نسيتى وقوفك فى الشمس أيام النشوف (٢)، وأنت شبه
اصطبل من غير سقوف، فلا تغترى بعين مائك الساهية، فمازلتى من
الحسن عارية (٣)، ألم تعلمى أنى نزهة الأنام، وتحفة الأيام، فمن ذا
يبارزنى أو يناضل ، أو يباهينى أو يباهل، تعايرينى بالحشيش الخسيس،
وتقولى أن متناوله من جنود إبليس، نسيتى خمرك وخمارك، وجمعك
وكثرة فشارك ، تدمى العقار (٤)، الذى أزرى بالعقار، مفتاح الأفراح،
ومصباح الأرواح، ينصر على الهم، ويكسر جيش الغم، يجمع شمل
الأحباب، ويغل حدة الشباب، ويشهى الطعام والشراب، ولا يختص
ببعض المواضع، بل يستعمل فى السوق والجامع، ويروض أخلاق الكرام،

(١) الأزاليط كلمة عامة ربما مشتقة من مادة زلط والزلط المشى السريع .

(٢) المقصود بإيام الشوف هو حلو البركة من الماء إذ كانت برك القاهرة تمتلأ بماء النيل فى الصيف فقط
أيام فيضان النيل ويحسر عنها الماء فى الشتاء وتزرع أرضها بمحاصيل شتوية .

(٣) (فلا تغترى .. عارية) ساقطة من النزهة .

(٤) العقار هو الحشيش .

وأكله خير من شرب المدام، وليس في تحريمه نص مسموع، ولا على بائعه حد مشروع، ولا صحيح ولا معلول (١) ثم انشأ يقول:

هي البكر لم تنكح بماء سحابة ولا عصرت يوما برجل ولا يد
ولا عبث القسيس يوما بكاسه ولا قربوا من دنسها نفس ملحد
ولا نص في تحريمها عند مالك ولا حد عند الشافعي وأحمد
ولا اثبت النعمان تنجيس عينها فخذها بجد المشرفى المهند
وكفّ اكفّ الهم بالكف واسترح ولا تترك يوم السرور إلى غد

فَعِنْدَهَا قَالَ الْبَرَكَةُ: يَا مَنْ يَرُومُ الْفَضْلَ وَيَدْعِيهِ، وَيَفْخَرُ بِمَا لَا فِخْرَ فِيهِ، لَقَدْ قَلْتِ وَأَسْرَعْتِ، وَتَكَلَّمْتِ فَأَوْسَعْتِ (٢) يَا جَاهِلُ يَا تَعِيسُ، تَفَاخُرُ بِحَشِيشِكَ الْخَنْدَرِيسِ (٣)، قَدْ قَلْتِ شَطَطًا، وَغَلَطْتِ خَطًا، وَأَخْطَأْتِ غَلَطًا، لَقَدْ جُرَّتْ فِي قَوْلِكَ يَا شَكْلُ الْإِنْكَيْسِ، بِافْتِخَارِكَ بِمَنْ تَصْحِيفُ (٤) إِسْمَهُ الْخَسِيسِ، وَتَعْدِيثُ يَا غَيْرَ مُحْتَرَمٍ، عَلِيٌّ مِنْ أَصْلِ (٥) اسْمِهَا الْكِرْمَةُ الْمَشْتَقَّةُ مِنَ الْكِرْمِ، فَالْكِرْمَةُ لَهَا الْقَطُوفُ الدَّانِيَاتُ، وَالطَّعُومُ اللَّذِيذَةُ النَّكْهَاتُ، وَالْأَلْوَانُ الْفَائِقَةُ، وَالْمَطَاعِمُ الذَّائِقَةُ (٦)، ثَمَرَتِهَا تَخْصِبُ الْأَبْدَانَ، وَتَدْرُ الْأَلْبَانَ، وَتَصْلِحُ الْكَبِدَةَ، وَتَنْفَعُ الْمَعْدَةَ، وَتَغْذِي وَتَسْرُ، وَتَنْعِظُ وَلَا تَضُرُّ، وَتَحْلِلُ وَتَلِينُ، وَتَرْطِبُ وَتَسْخَنُ، وَتَنْعَشُ الْأَرْوَاحَ، وَتَحْدِثُ الْأَفْرَاحَ، وَأَمَّا مَاؤُهُ فَيَفْرَحُ الْقَلْبَ، وَيَزِيلُ الْكَرْبَ، وَيَحْرِكُ الْأَخْلَاقَ الرُّضِيَّةَ، وَيَحْدِثُ الصِّفَاتَ الْمَرْضِيَّةَ، كَالشَّجَاعَةِ وَالْكَرَمِ، ثُمَّ الْبِرَاعَةِ وَالشِّيمِ (٧)، وَطَبَعَهُ طَبَعُ

(١) انتشرت زراعة الخشيش وتعاطيه في العصر المملوكي ورجح به أغلب الأوقات وعانى المصريون

آنذاك من آثاره الضارة (ولا يزال) وقد قامت بعض المحاولات لإبطاله إلا أن ذلك لم يستمر كثيرا.

(٢) وتكلمت فأخطأت في الزهة. (٣) الخندريس هي الخمر القديمة.

(٤) تصيف في الزهة. (٥) اصل ساقطة في الزهة.

(٦) الرائقة في الزهة. (٧) كالشجاعة... والشيم ساقطة في الزهة.

الحياة، وهو إنسان عين (١) المياه، جوهرها السكر والطرب، أشبه مذاقه بالزلزال والضرب، لاستيلاء السعدين على مزاجه، واتفاقهما على هيلاجه (٢) وأجاد المقال، من ترنم وقال:

وهى كياقوت جرى ذاتسماً وهكذا الياقوت ماء جمد
تسرقق الروح فى لطفه وتذهب السقم وتنفى الكمد

فقال الجسر: ليس الأمر (٣) كما قلتى، ولا المدح كما عقلتى، أتمدحى ما يحط الإنسانية، من مرتبة الملائكة إلى الحيوانية، الخمر جامعة الإثم وأم البكائر، وأس الشرور وباب الحقائق، العقل يذمها، قال الله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ ﴾ (٤) وقال جل وعلا عن رسوله صلى الله عليه وسلم ﴿ وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾ (٥) وقد حرم الرسول صلى الله عليه وسلم الشراب، ولفظ اجتنبوا أمر بالاجتناب، وتسميته رجساً تأكيداً للتجريم، إذ كل رجس حرام فهو حرام ذميم (٦)، فثبت تحريم الصهباء (٧)، وفيه تقول العقلاء الالباء:

وما الفخر بالشىء المحرم والذى إذا شرب الإنسان منه قليلا
تقل فى أطواره مستفهقرا إلى أن يسرى الملاً منه قتيلا
ولا فرق بين السكر حالاً وبينه فبيئس شراباً ثم ساء نهيلاً (٨)

(٢) (جوهرها... هيلاجه) ساقطة من الزهدة.

(٤) سورة المائدة، الآية ٨٩.

(٦) (وتسمية... ذميم) ساقطة من الزهدة.

(٨) هذا البيت ساقط فى الزهدة.

(١) اسان العين: ناظرها.

(٣) (الأمر) ساقطة فى الأصل وفى الزهدة أيضاً.

(٥) سورة الحشر الآية ٧.

(٧) الصهباء = الخمر.

وهذا فعل الشراب، ويلحقه بالذوق السراب، فإن الخمر عدو الإنسانية، وصديق النفوس الحيوانية، يكسب شاربه سبعة أخلاق، متعاقبات مالها من خلاق، الفهدية والسبعية والقردية والعنزية والضبعية والكلبية والسابعة (١) الخنزيرية. ثم أن يغيب عمن أتاه، ويفقد لذة الحياة، ويلقى مذموما مصروعا، ويفيق مخمورا موجوعا، فلو تناولتى من هذا العقار جفنه، أو طابة من جفنه، وغضضتى طرفك، وسددتى أنفك، وغطيتى ولطيتى فاك بكفك، وهزرت عطفك، لاطلعت على سرها، وما يبدو من فعلها وأمرها (٢).

فقال البركة: على رسلك يا بهلول، فمن جهلك ما تعرف الفاضل من المفضول، بحكمك على الخمر وتطوره، والحكم على الشيء فرع من تصوره، وبالجملة المرأى غير محمود، والزائد فى الحد نقص فى الحدود (٣)، ومن اقتصر على ما يوجب الشرور، لم يبلغ ما يوجب السرور، فإن التأثير بالكمية، غير التأثير بالكيفية، وناهيك أنها أنهار فى الجنة، وتحريمها كتحریم الذهب فى السنة، لتكون خالصة هناك للمؤمنين، ولو لم تكن غاية للراغبين، لما جعلت لذة للتاربين، وليس لك أن تمدح حشيشك وتذم الشمول (٤)، فيرمى عقلك بالداء المعضول، تحلل هذا وتحرم هذا باختيارك، فهذا من جملة فشارك. روى نافع عن ابن عمر عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال: كل مسكر حرام والسكر محرم فى سائر الملل، وعند أرباب الآراء والنحل. فاستفق يا أولهان، واسمع فعل

(١) (الساعة) ساقطة فى الزهة. (٢) (ثم ان يعيب .. وامرأ) ساقطة فى الزهة.

(٣) (وبالجملة .. الحدود) ساقطة فى الزهة.

(٤) (الشمول فى الملعة هى الخمر أو النارة منها سميت بذلك لأنها تجمع شمل شاربها أو لأنها تشتمل على العقل فتملكه وتذهب به) انظر المنحد للويس معلوف مادة شمل).

حشيشك في الأبدان؛ تجفف الدماغ والأعصاب، وتغير المدر (١) وقللة الإنتصاب، تفسد الاضطناع، وتغير الطباع، وتوقب الغاسق، وتعتبر الفاسق، وتكسل الإنسان، وتدع الشجاع جبان (٢)، كم أسد أصبح بها مصادا، سائس (٣) أضحي منقادا، ورئيس أضحي بها مرؤوسا، وكريم غدا خسيسا، بئس ما به افتخرت، رمت التقدم فتأخرت، وليس لنا بالبع هذا وحاس هذا في فيه، أطلت فلنرجع إلى ما نحن فيه، لقد أتيت من جهلك بالعجب، وبالغت في سوء الأدب، وعدلت عن القول الصحيح، ونطقت بالكذب الصريح، فمثلك لا يطنب في عدله، ويحمل قوله على جهله، أخبرني بمن عاشرت من العلماء والفضلاء، والرؤساء والعقلاء، فأنت عندي من العوام ولو كنت ابن عبد السلام (٤)، هل صحيت كالمقر الصاحب (٥)، وهل قُرت عيونك بناظر وحاجب (٦)، وأنأدرّة عقد (٧) السلوك، ومنزل أبناء الملوك (٨)، فمن أصحابك ياكثير الفشار، المحيريق وابن المهتار، كم افتضح عندهما من يدب دبب الزيت، ولا يرجع ولو

(١) (تغير السدد) في الأصل والتصويب من الزهقة. (٢) (وتوقب .. حيان) ساقطة في الزهقة.

(٣) سوسى في الأصل. (٤) (فأنت عندي .. عبد السلام) ساقطة في الزهقة.

(٥) المقر الصاحب هو شهاب الدين أحمد بن الحيعان الذي تولي وظيفته كاتب السر في آخر الدولة المملوكية وأول الدولة العثمانية، وهو واحد من أفراد عائلة ابن الحيعان الذين تولوا وظيفتى ديوان الخيش والخزانة وتوارثوها لمدة تزيد على مائة وعشرين عاما في الدولتين المملوكية والعثمانية، وكانت دورهم بحوار جامع البركة وقاموا باصلاحه عدة مرات.

(٦) (إشارة إلى سكن أصحاب الوظائف الهامة في الدولة كالوزراء والحجاب وغيرهم على شواطئ البركة.

(٧) في الأصل عد.

وهي عبارة درة عقد السلوك ربما إشارة إلى مؤلفات المؤرخين ابن حجر العسقلاني والعمري والمقريري (الدور الكامنة، عقد الحمان، السلوك لمعرفة لدول الملوك) وخصوصا ان ابن حجر العسقلاني كان ساكنا بالبركة ولطالما اشار العمري والمقريري لارتياهما كثيرا البركة.

(٨) (ومنزل اساء الملوك) إشارة إلى بيت ابن السلطان قايتباي على البركة آنذاك

كان ابن صاحب البيت، لا يفارق الخيط والكلاب، والدرج والتراب، والمقص والحلقة، والشوكة والخرقه، لا يتوقف في إقامة الأعذار (١)، ليله في الحقيقة كالنهار، ومعظم اجتهاده في وقت الأسحار، كم قبض من عندهما متولى دار الحرب من أورث الناس الحزن والكآبة، وورث صاحب المال من غير قرابة (٢)، يفتح الأقفال الموثقة، والأبواب المغلقة، ويوسع النقوب، ويضيق القلوب، ويقرب الكروب، ويبعد المطلوب، كم فيك من استباح جمعاً منيعاً، وبلغ مكاناً رفيعاً، وركب من الطريق صعابها، وأعجز الولاة ونوابها، لا يفكر في عواقب الأمور، ولا يخشى نوايب المحذور، لا تهوله الأقدام، ولا ترهبة الحمام، وسواء لديه الحلال والحرام (٣)، أتريد بمثل هذه الأصحاب أن تكون بين الملام مشكوراً، وإذا أبديت لهم عذراً تصير معذوراً، فهلا إقتديت بآثاري، وجريت في مضماري (٤) ثم أنشأت تقول (٥).

أنا درة الحسن البديع وهالة	لسبور ثم اشرفت للناظر (٦)
هذا وأنت محل كل ممزق	بالسرد يفرع من خيال الطائر (٧)
ودعيت جسراً في البرية عندما	امسيت تحوى كل لص جاسر (٨)

فلما سمع الجسر من البركة هذا الإخراق، تنمرت عيونه وشمر عن زند وساق، وقال : أمعنتي في الخطاب، وأسرفتني في الأطناب، ولي زمان

(١) (لا يتوقف .. الأعداء) ساقطة في النزعة . (٢) (ومعظم . قرانة) ساقطة في النزعة .

(٣) (ويبعد المطلوب .. والحرام) ساقطة في النزعة . (٤) (فهلا .. مضماري) ساقطة في النزعة .

(٥) (ثم انشأ يقول) في النزعة

(٦) (ثم اشرفت) في الأصل والتصويب من النزعة .

(٧) (السرد : الدرع) (٨) هذا البيت ساقط في النزعة .

أوقرك يا أخس القحباب، يا حفرة (١) يانقرة، يا باهته يا وجه السخرة،
عامت في أرحامك المراكب، وخاض فيك الراجل والراكب، هلا نلتى
منالى، أو يسمع الدهر بمثالى.

فالتفتت إليه البركة وقالت: إحفظ لسانك ياتعيس، يا شكل
الأنكيس (٢)، وقرابة إبليس، وغض طرفك يا سوق الفسوق، وأخو الجنينة
وابن عم باب اللوق (٣)، فمن قولك إني ما نلت منالك، ولا سمح الدهر
بمثالك، تباً لمن جعل الباطل حقاً، وبعداً له وسحفاً، فيماذا تصول: وبماذا
فى حلبة الفخار تجول، أتريد أن تكون لى مشابها، وأنا أحق بالمفاخر
وأولى بها، وليس البربان تأتوا البيوت من ظهورها، ولكن البر من اتقى
وأتوا البيوت من أبوابها (٤)، فلو رجعت عن جهلك، وعدت إلى عقلك،
لحكمتك فى وفى نفسك، فانظر إلى ماذا يحتوى سوقك، على الفوال
صليح الأقطع، والصاجاتى عبيد الأقرع، وفيه البادنجان المبرز، والبطيخ
المزرع المقور، ولحم وقائع الجمال المدقوق، والفول الحار والحمص
المسلوق، والعدس النابت (٥) من غير بقول، والملوحة وأم الخلول، وأنا
ممن يجلب إلى سائر الخيرات، وتغنم بى المسرات، من أسمطة تمد،
وأطعمة تعتد، من أوز ودجاج، وخبز وكماج، وسمك طرى ومالح،

(١) (يا حفرة) فى الزهرة.

(٢) الأنكيس كلمة عامية ربما تعنى الجوال (الشوال) وربما مشتقة من النكس وهو قلب الشيء على
رأسه، ونكس رأسه بمعنى أماله.

(٣) (يا كثير الفسوق وأخو الجنينة وبناب اللوق) فى الزهرة. والجنينة كانت تقع جنوبى بركة الرطلى
وكانت موطناً لزراعة الحشيش بها.

(٤) (وليس البر . . . أبوابها) ساقطة فى الزهرة. (٥) (البايت) فى الزهرة.

مقلى ومكفن بالصلص صالح، وطيور مسفدة (١)، ودجاج بالسكر
 والمسك مصفدة، وألبان منفحة، وأجبان مشرحة، والأرز الأصفر
 والفلفل، والشرائح السوداء والمعسل، والأرز باللين الأبيض، ثم
 السنبوسك المحلى والمحمض (٢)، والخيطية والهيطلية، واللبنية والمتوكلية،
 والحبشية والعنبيه (٣)، والماوردية والتمرية، وسكر دانات وخلول،
 ومصرفات وبقول (٤)، ومن الحلوات ما صنع من الشهد والسكر
 المذاب، المشهور بالجلاب، من السكب المسك، والهبر المسير والمشبك،
 والعصيد والفالوج والمرشوش، والسكر المصنوع للطاخ المنقوش،
 واللوزينج والقطايف المحشو والقاهرة القوية النار، والقرعية الشديدة
 الاخضرار (٥)، وهرايس الفستق والكناييف، وأصابع زينب والقطايف،
 فأين أنت من أمورى التامة، التى تعرفها الخاصة والعامه .

فالتفت إليها الجسر التفات المدعور، وأطلق لسان الفحش والفجور،
 وقال : إيش تقولى يافضلة الطجدارية والفراشين، والغلمان والسقاين،
 والراكبدارية والطبالين، والعرفا والدلالين، والعتالين والفحامين، والزبالين
 واللحامين، والملاحين والقداسين، والرواسين (٦)، والمصارعين،
 والملاكمين، والمنجمين، والمشعبدين، ما خلتى طايفة حتى كفتها ، ولا

(١) (مسدة) فى النزهة، ومسده بمعنى مشوية على عود حديد، فى اللغة (السود) : عود من حديد

يعظم فيه اللحم ليشوى (ح) سفايد ومصفده : موققة .

(٢) (والأرز ... والمحمض) ساقطة فى النزهة .

(٣) (والحبشية والعنبيه) ساقطة فى النزهة .

(٤) (وسكر دانات .. وبقول) ساقطة فى النزهة .

(٥) (اللوزينج ... الاخضرار) ساقطة فى النزهة .

(٦) (والقداسين والرواسين) ساقطة فى النزهة .

منةً من أحد إلا وليتها (١)، ألم تعلمي إن فضلي واصل إليكى، وصدقتي
فى كل الأوقات جارية عليكى، ثم ارتجز بالشعر بديها، بمدح نفسه
ويهجئها:

على كل حال إن حسنى ظاهر	لديك ولى حق عليك التفضل
فلولاي ما كانت بقاعك قطرة	من الماء تبسو للذى يتامل
فأنت عجوز السوء مازلت بركة	تخوض بك الحيتان والسفن ترحل
وعما قليل تصبحى شبه جيفة	عليها عوادى الطير تعلق وتسفل
ويغزرو إلى من حل فيك مع الشتاء	جيوش من الناموس بالقرص يعمل (٢)
ويرحل عندك أهليكى ثم تلتقى	مدى الحول ذلا عنك لا يتحول

فلما فرغ من إنشاده، همت البركة بهجوه وجوابه ، سد النيل المبارك
فاهما عن الفحش فى الخطاب، ودخل بينهما بالصلح وأخذ يجرى فى
العتاب، وقال : كفا عن هذا الكلام، لا يسمع بكما ضواحي الشام، فإن
كلا منكما لأهله نزهة ومفترج، وما على المتقى منكما من حرج، فامتثلا
أمره، ورضيا حكمه، وقاما إلى بعضهما وتعانقا، وانضما بالصدر
وتلاصقا، واعترف كل منهما لصاحبه واستغفر، وحمد مولاه على ما
أولاه من المحاسن وشكر، ولما قلدهما النيل المبارك بالصلح أحسن صنيع،
قام بمدح لسان حالهما بكل معنى بديع :

ما سام بالشام برق هل ما طره	إلا وناظره بالسدمع ناظره
متسيم طاف بيكار الصدود به	حتى عليه لسقد دارت دوائر
عن مصر لما نأى محبوبه كشرت	وشاته ولسهَذَا قَلْ ناصره

(١) (وكفيتها) فى النزهة .

(٢) فى الأصل (بالقرص يعمل) وفى النزهة بالقرص يقتل، والصواب ما ذكرته .

فيالها بلدٌ إنساب كوثرها
والشام كالشامة السوداء ضائعة
ان قل نادر الحسن في بلد
كذلك الروضة الغناء قلعته
كأنه وصفار الفلك جارية
لما علا الماء قد سلت خناجره
بكف مقياسه فاضت أصابعه
اغلاه في قاعه الوعسا مجتليا
ومصر في وشى حلى الزهر قد حليت
لقتية كرقيم الروض ساد بهم
على بساط من الأزهار فاق على
به الزبد جد والياقوت مع درر
من اصفر فاقع مع أبيض يقق
وأخضر يانع في أحمر شرق
وأزرق لا زوردي يفوق على
لله فيها زمان مرلى وحلا
ماء دمعى وأهوائى وتربتها
بهجره ضاقت الدنيا على كما

بشاطئ نظمت فيه جواهره
بجيدها حيثما ضاعت عنابره
يوما فقد كتبت فيه نوادره
والقوس حاجبه والزهر ناظره (١)
وادي النقا قد جرت فيه جآذره
فاضت دماء على العبرا حناجره
جودا يسربها البادي وحاضره
عرائس الزهر بعد الطي ناشره
بالقرط والتاج مذ دقت بشائره
كهف الربيع الذي قد نام سامره (٢)
دهر المتيم تلويننا أزامره
حتى النضار يرى فيه نضائره
وأسود سجب ليقنت محابره
بعنبر الأرض قد ضاعت مجامره
أفق السماء الذي نارت زواهره
مع الحبيب الذي حُلَّت ضفائره
ونار قلبسى قد طابت عناصره
ضاقت على ردفه يوما مآزره

(١) الروضة هي جزيرة الروضة والقوس عبارة عن عقد تبقى من القلعة الصالحية بآخر الجزيرة وكان متنزها

حليلا وقال فيه الشاعر شمس الدين النواجي:

مصر قالت دمشق لا

لورأت قوس روضتى

تفتخر قط باسمها

منه راحت سهمها

(٢) (سادتهم) في النزهة.

أضلني من ظلام الشعر كافره (١)
قلبي كلبي لأن اللحظ ساحره
عيني بنجد الهوى نهرا غدائره
باكر صبحك أهني العيش باكره
فقد ترنم فوق الأيك طائره

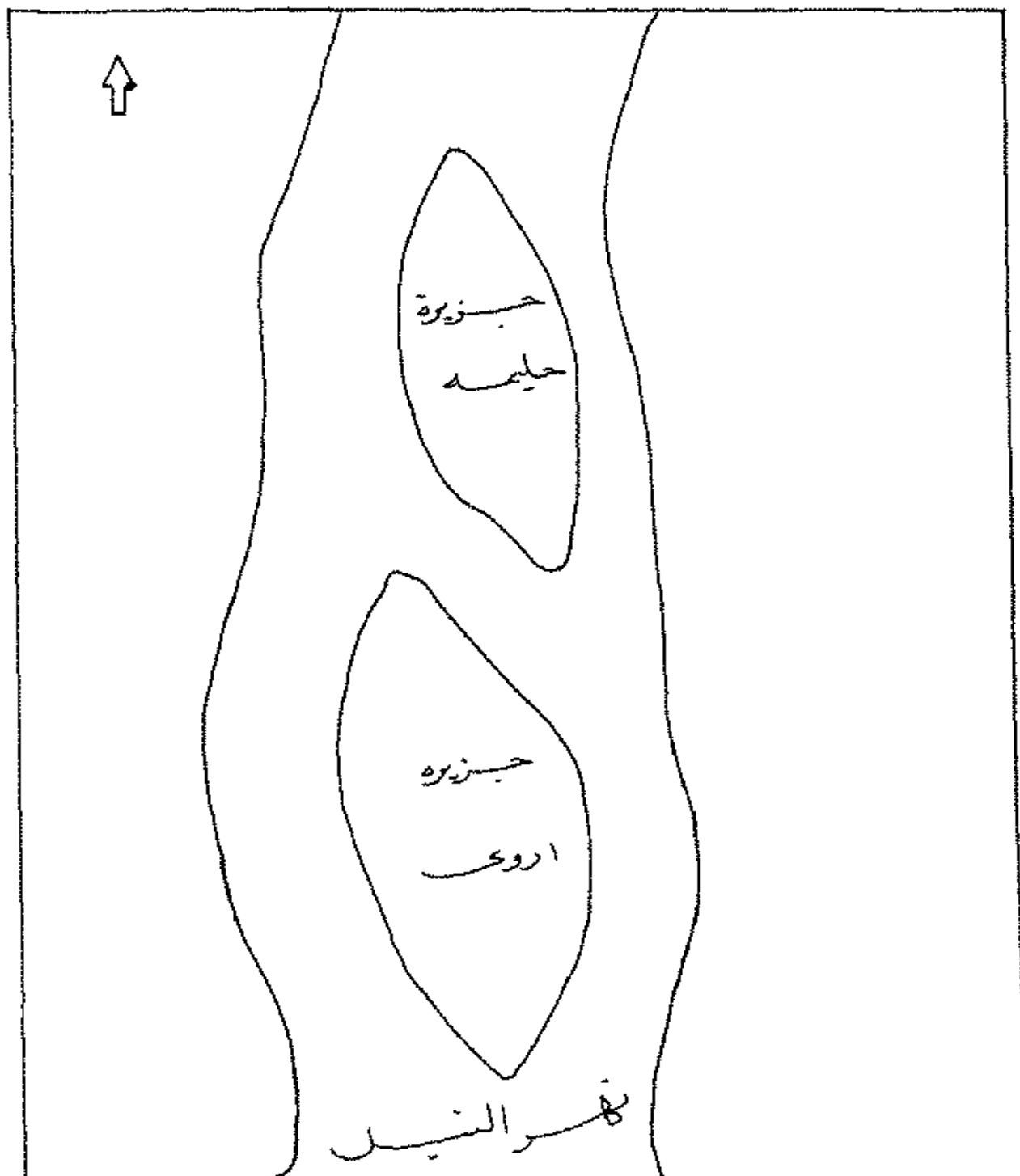
بمسلم الحسن يأتيني إليه إذا
أغرقت بالدمع فرعون الصدودها
الحاظه بهرت قلبي وقد بهرت
من خمريقته مع كأس ميسمه
فالقلب منك إذا فني (٢) بقامته

تمت المفاخرة بالتحقيق، والله ولي التوفيق، اللهم أدخل منشيها،
وكاتبها وقارئها ومستمعها، دار السلام، وهذا آخر الكلام.

(١) (أطلس) في الزهمة .

(٢) غنى في الأصل .

المفاخرة الثانية
الدرة المنيرة في مناظرة الجسر والجزيرة



(شكل ٦) جزيرة أروى و جزيرة حلیمه قبل اندماجهما

أولا : دراسة تاريخية للجزيرة الوسطى

تعرفنا فى المفاخرة الأولى على الجسر وهنا نتعرف على الجزيرة الوسطى ونقول :

سميت الجزيرة الوسطى بهذا الاسم لأنها تقع فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر الجيزة، وكانت تعرف أيضا بجزيرة أروى (١).

ولم تظهر هذه الجزيرة للوجود إلا بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠م وعقب ظهورها بنى الناس فيها الدور الجليلة والأسواق والجامع والطاحون والفرن، وغرسوا فيها البساتين وحفروا الآبار وصارت من أحسن متنزهات مصر (٢).

وفى سنة ٧٤٧ هـ / ١٣٤٦م ظهرت جزيرة أخرى ما بين بولاق والجزيرة الوسطى سميتها الناس جزيرة حليلة (٣)، وصارت هذه الجزيرة متنزها عظيما ونصب فيها الناس الأخصاص (العشش) وزرعوا ما حول الأخصاص بالزهور والرياحين والمقاشى واتجه أرباب الخلاعة والمجون إليها وتتهكوا بأنواع المحرمات فارتفعت قيمة الأرض بها (٤) وذكر «المقريزى»

(١) المقريزى، الحطط ج ٢ ص ١٨٦ . (٢) نفسه .

(٣) نفسه . (٤) نفسه، ابن تغرى بردى، النجوم الزاهرة ج ١٠ فى ١٢٩ .

كثرة المنتزهين بها فقال « . . وتردد إلى هذه الجزيرة أكثر الناس حتى كادت القاهرة أن لا يتبت بها أحد » (١).

ثم اتصلت الجزيرتان (أروى وحليمة) بواسطة طرح النيل وصارت جزيرة واحدة وأصبح اسم الجزيرة الوسطى عَلَمًا عليها في الوثائق والمصادر التاريخية، ومنذ أيام محمد علي (١٢٢٠ - ١٢٦٥ هـ / ١٨٠٥ - ١٨٤٨ م) صار الجزء الجنوبي منها يعرف باسم الجزيرة والجزء الشمالي يعرف باسم الزمالك (٢).

والجزيرة طولية الشكل وهي من جزر غربي مجرى النيل وتتبع من الناحية الإدارية قسم قصر النيل بمحافظة القاهرة وتبلغ مساحتها خمسمائة وخمسة عشر فدانًا حاليًا (٣).

وقد اتضح الحرص على تعمير الجزيرة الوسطى منذ نشأتها في إنشاء جامع بها على يد الطواشي مثقال خادم تذكارة ابنة الملك الظاهر بيبرس، وقد ذكر «المقريزي» إنه كان عامراً أيامه (٤) (ت ٨٤٥ هـ / ١٤٤١ م) وقد حقق المرحوم العلامة محمد بك رمزي موقع هذا الجامع فذكر أنه هو الموجود حتى الآن والذي يعرف بجامع الجزيرة في حديقة النهر (٥) «أسفل كوبري ٦ أكتوبر حاليًا».

(١) المقريزي، الحطط ج ١ ص ١٨٦.

(٢) الرمالك كلمة تركية معناها الأخصاص (العشش) نسبة للأخصاص التي سماها حاشية محمد علي حول قصره الذي بناه شمال الخيرية.

(٣) تقرير من وزارة الأشغال.

(٤) الحطط ج ٢ ص ٣٢٥.

(٥) انظر تعليق محمد رمزي على النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٦.

وقد حدثت بمصر أزمات كبيرة بدأت سنة ٨٠٦ هـ / ١٤٠٣ م وأهم أسبابها عدم وفاء النيل وحدوث شراقي عظيم وقد أثرت تلك الأزمات تأثيرا عظيما على عمران القاهرة وأدت إلى تخريب عدد من أحيائها خصوصا ظواهرها ، وقد تأثرت الجزيرة الوسطى بتلك الأحداث، فذكر المقرئزي آنذاك « . . وتلاشت مساكن هذه الجزيرة منذ كانت الحوادث في سنة ست وثمانمئة وفيها إلى اليوم بقية حسنة (١) .

ولكن تلك الأزمات لم تستمر طويلا وعاد التعمير بالقاهرة للمخطط التي تخربت خصوصا التي تمتد على شاطئ النيل على يد السلطان المؤيد شيخ (٨١٥ - ٨٢٤ هـ / ١٤١٢ - ١٤٢٠ م) وتوالى العمران بالجزيرة الوسطى بدرجة كبيرة بعد ذلك حتى أن السلطان اينال (٨٥٧ - ٨٦٥ هـ / ١٤٥٣ - ١٤٦١ م) أمر في يوم ١٣ جمادى الأولى سنة ٨٦٢ هـ / ١٤٥٨ م بالمنادة « بأن أحدا من الناس لا يعمر عمارة بجزيرة أروى المعروفة بالجزيرة الوسطى ولا بساحل بولاق لما رأى ضيق الطريق من كثرة العمائر والأخصاص وأمر أيضا بهدم أماكن كثيرة فهدمت في اليوم المذكور» (٢) .

ولكن التعمير ظل قائما بالجزيرة بقية العصر المملوكي (٣) حتى نهاية حكم السلطان قانصوه الغوري الذي عمّر حماما كبيرا بالجزيرة (٤) .

وكانت الجزيرة على أحسن ما تكون من الحركة والنشاط في أيام

(١) المخطط ج ٢ ص ١٨٦ .

(٢) ابن تفرى بردي، السجوم الزاهرة ج ١٦ ص ١١٨ .

(٣) ابن إياس، بدائع الزهور ج ٥ ص ٢٧٠ .

(٤) كتاب وقف السلطان الغوري رقم ٨٨٢ أوقاف ص ١٣٢ - ١٣٣ .

فيضان النيل، ولكن أحيانا ما يطغى الفيضان عليها فتغرق بيوتها وأخصاصها وزراعاتها فتتهجر حينئذ، بالإضافة إلى عوامل أخرى تؤثر سلبا على الجزيرة مثل الاضطرابات والصراعات السياسية والعسكرية التي تكون الجزيرة مسرحا لها (١).

وتلاشى العمران بالجزيرة أثناء الغزو العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ / ١٥١٧م وهجرها سكانها وقد كانت من أجل مفترجات مصر إذ نزلت العساكر العثمانية في بر الجزيرة على رملة البحر وصاروا يخربون بيوتها حتى لم يبق بها الا الجدر وقد نقل أصحاب الأملاك السقوف والأبواب والطيقان فخرت الجزيرة من يومئذ وانقطع الرجاء من عمارتها ثانيا (٢).

ونتيجة لما سبق ان ساد النشاط الزراعي في الجزيرة في العصر العثماني فعمرت بالبساتين والحقول، وفي القرن ١٢هـ / ١٨م أقام العديد من الأمراء القصور ذات البساتين مثل الأمير عثمان كتحدا القازدو غلى (٣) والأمير عبد الرحمن الذي أقام قصرا على مساحة فدانين ونصف وحوله بستان مساحته سبعة أفدنة (٤).

وقد وقعت الجزيرة في خرائط الجملة الفرنسية (١٧٩٨ - ١٨٠١م) كحقول وبساتين فقط، وعادت العمارة مرة أخرى للجزيرة أيام محمد على الذي أنشأ بها في سنة ١٢٤٦هـ / ١٨٣٠م قصرا بين المزارع في الجهة الشمالية منها اتخذها للنزهة، وكان بالقرب من هذا القصر زمالك

(١) محمد الششتاوي، متزهات القاهرة ص ١١٧.

(٢) ابن إياس، ندائع الزهور ج ٥ ص ١٩٦، ٢٧٠.

(٣) كتاب وقف عثمان تحدا رقم ٢٢١٥ أوقاف ص ١٥٣ - ١٥٤.

(٤) كتاب وقف عبد الرحمن كتحدا رقم ٩٤٠ أوقاف.

(عشش) يصطاف فيها رجال حاشيته وعساكر حرسه فعرفت المنطقة منذ ذلك الوقت باسم الرمالك، كما بدأت القصور الفخمة تعرف طريقها للجزيرة وأصبحت من أرقى الأحياء بمصر بما انشئء بها من القصور ذات البساتين والعمارات الفاخرة والحدايق الكبيرة والأندية الرياضية والاجتماعية والفنادق والمعارض والقصور الثقافية.

ما قيل في الجزيرة الوسطى (جزيرة أروى) وجزيرة حليلة

قال المنصوري في جزيرة أروى والزربية

قم سيدى نسعى إلى فُرُج زهت
ونرى زرابيا بها مبثوثة
ما بين املاق وبين جسور
تسبيك بالولدان وبالجور

وقال آخر

إذا رحلت الجزيرة كسى أعدى
فأذكر يوم حشر الخلق طرا
أرى خلقا كخيل للطراد
وأدعو بالسلامة فى المعاد

وقال ابن أبي حجلة

امسيت فى قصب الحريرة مغرما
عيدانه لولا حلاوة ذوقها
وبقده العسال كالولهان
شبهتها فى الشكل بالمران

ولابن قادوس فى الجزيرة

أرى سرح الجزيرة من بعيد
كأن مجرة الحوزاء حطت
كأحداق تغازل فى المغازل
وأثبتت المنازل فى المنازل (١)

(١) ابن عباس، دائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٥٨.

في جزيرة حليلة يقول الأديب إبراهيم المعمار :

بها عقول سليمة	جزيرة البحر جئتُ
ببساطة مستقيمة	لما حوت حسن مغنى
وكم مشوا بنميمة	وكم يخوضون فيها
ما تملك الا حليلة (١)	ولسم تنزل ذا احتمال

(١) المقرئ، الخط ج ٢ ص ١٨٦ - ١٨٧.

ثانيا : التحقيق والتقييم

(أ) التحقيق

تقع هذه المناظرة ضمن مجموعة من الرسائل التي تحمل رقم ١٩٤ أدب تيمور بمخطوطات دار الكتب المصرية . وعدد صفحاتها ١٨ صفحة وسطرتها ٢٥ سطرا وعدد كلمات السطر الواحد يتراوح بين ٩ إلى ١٢ كلمة وهي مكتوبة نسخ معتاد .

وهذه النسخة سيئة جدا ، ووجدت صعوبة بالغة في قرائتها لتلفها حيث إنها تعرضت للرطوبة فطبعت الصفحات على بعضها البعض (انظر الصور) .

وقد ألف هذه المناظرة حسبما ورد فيها أبو الفتح محمد فقير الأزهرى الشهير بابن المؤذن، وقد بحثت عن ترجمة له في كتب التراجم فلم أجد

وتاريخ تأليف هذه المناظرة ورد بها في ختامها سنة ٧٩٠ ولم يذكر رقم المئات إلا إننى توصلت إلى أن المؤلف عنى سنة ٨٧٩هـ حسبما ورد بها من معلومات تؤكد هذا التاريخ .

وهذه النسخة من المناظرة نسخة وحيدة وقد بحثت فى مصورات

مخطوطات دار الكتب المصرية ومصورات معهد المخطوطات العربية عن
أى نسخ أخرى لهذه المناظرة فلم أجد .

وقد صححت الأخطاء التى وقع فيها الناسخ بما يتفق مع سياق النص
مع كتابة الهمزات التى بسطها الناسخ مثل غيره من النساخ إلى ياء وكتابة
التاء مقفولة وقد كتبها الناسخ مفتوحة .

وعلقت على النص بالهامش ، مع كتابة فهرس الأعلام والأماكن
والمصطلحات فى نهاية الكتاب .

(ب) التقييم

ونقيم هذه المناظرة فنقول أن مؤلفها غير معروف ولا نعرف له غير هذه
المناظرة ، وأسلوبها متوسط المستوى من الناحية الفنية ، ويعاب عليها
التطويل فى عباراتها ، وبنائها الدرامى أقل من مناظرة الجسر وبركة
الرطلى ، وقد عمد المؤلف إلى كتابة بعض الأشعار من تأليفه .

واستعمل الألفاظ والمصطلحات السائدة فى العصر المملوكى مثل
السناجق وكوسات البحر وجواشن .

ومن ناحية الموضوع أبرز دور النيل وأهميته بالنسبة للمتنزهاة وقد
ذكر بعضها التى كانت تتمتع بمكانة خاصة لسكان القاهرة المملوكية مثل
الخطط على النيل وهى المنشية والكوادى وقصر العينى ، وبركة الفيل
وبركة بطن البقرة (الأزبكية) وبركة الرطلى .

وترينا المناظرة دقة الملاحظة لمؤلفها فى عرضه لقناطر القاهرة والأماكن

على خلجانها حيث اتبع في ذكرها الترتيب الجغرافي لها من الجنوب للشمال فذكر قناطر السباع ثم بركة الفيل وقنطرة عمرشاه وقنطرة طقزدمر وآق سنقر دُباب الخرق والأمير حسين والموسكى وبركة بطن البقرة وباب القنطرة والخروبي، وهذه القناطر متتابعة على الخليج الحاكى (الخليج الكبير).

كما ذكر بعض القناطر على الخليج الناصرى وعلى خليج فم الخور مثل القنطر العسرا والمقسى على خليج فم الخور، كما ذكر التقاء الخليجين معا وذكر القناطر على مجرى الخليج بعد الإلتقاء مرتبة جغرافيا وهى قناطر الوز وبنى وائل ثم ذكر خليج الزعفران ثم سد الأميرية .

وتعرض للمقاصف على الخليج والبركة، وذكر إن البيوت بالجزيرة وعلى الخليج موسمية إذ كانت تسكن وتعمر فقط فى الصيف .

ثالثا النص

الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين آمين

الحمد لله الفتاح . والصلاة والسلام على سيد الملاح . الحمد لله الملك
البر . الذى أجرى البحر . لنفع كل فاجر وبر . وخص مصر بأعجوبة نيلها
السعيد . لينبت به زرعا وحب الحصيد . وذكرها فى كتابه المبين بقوله
« ادخلوا مصر أن شاء الله آمين » (١) .

أحمده حمد من غرق فى بحر فضله المبيد . وأشكره شكر من جبر
كسره فلم يزل بحر شكره يزيد . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك
له شهادة أنجو بها من بحار الأهوال معادى . ويروى بها من نهر الكوثر
قلبي الصادى . وأشهد أن سيدنا محمد عبده ورسوله الذى أنزل عليه فى
كتابه المكنون « أفرايتم الماء الذى تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن
المنزلون » (٢) صلى الله عليه وعلى اله وأصحابه صلاة يمتد لى بها جسرا
إلى الجنان . ما أحاط البحر بجزيرة فى كل مكان . . وبعد .

يقول أبو الفتح المسمى محمد فقير يرمى الفضل من كرم المولى هو
الأزهري ابن المؤذن شهره ومن كان للتقصير ستر اسمه أولى . وبعد .

(١) سورة يوسف . آية ٩٩ .

(٢) سورة الواقعة آية ٦٨ وآية ٦٩ .

إننى لما نصبت أفكارى شركا لصيد طيور المعانى . وغصت أبحر الشعر
على الدرر فأسارت منظوم الجواهر فى أجساد الغوانى . نظرت بعين سمعى
فى أوجه عبارات الألسنة . ممن طاف بالبلاد ووصف من كل شىء
أحسنه . فأجاد السمع والرؤية . أن يتخذ غير مصر منية . فهى جنة كل
حى . وكم نشر لحديث حسنها من طى .

إذا مارمت جنة كل حى فمصر أحال نيل أو ربيع
فأنهسار وأزهسار وحور وولسدان بمسرح ربيع

كأنما خلق الله أهلها من لطافة النسيم . وألبسهم حلاوة الألفاظ
بورودهم نهر العسل الوارد عليها من جنة النعيم . كم وردت من مناهل نيلها
العذب ماصفا . واتنعمت فى جنان مفترجاتها التى حوت عرفا . فلم أر
كالجسر ببركته المعروفة والجزيرة (١) بقلاعها المنفردة والملقوفة . وفيهما قيل :

قد اتحدا فى الحسن وانفردا به كأنهما فى طالع السعد عمرا
قصور وولسدان وحور وانهر وطيب هوا باللطف يا صاح اسكرا

قد جمعا أشتات المحاسن . وصحة النسيم العليل . فأنسيا غربة
الوطن (٢) ببذل أنفسهما للنزىل . وكل منهما قلعة للهو والطرب . أو

(١) الحسر هو حسر أرض الطبالة الذى يمتد شمال بركة الرطلى ويصل بينها وبين الخليج الناصرى ومحلّه
الآن شارع الظاهر بالقاهرة، والبركة هى بركة الرطلى . (عنهما بالتفصيل انظر ما سبق ص ١٢ - ٢٩)
أما الحريرة الوسطى وسميت بهذا الاسم لأنها تقع فيما بين الروضة وبولاق وفيما بين بر القاهرة وبر
الخيرية ولم يحسر عنها الماء الأبعد سنة ١٧٠٠هـ / ١٣٠٠م وكانت تعرف بحزيرة أروى، وفى سنة
١٧٤٧هـ / ١٣٤٦م طرح البحر (الليل) حريرة اخرى شمالها سميت حريرة حليلة، ثم اتصلت
الحريرتان معا وشكلتا حريرة الزمالك الحالية (انظر بالتفصيل ما سبق ص ٥٢ . ٥٩) .
(٢) (عاسيا عمرة الوطن) هذه العبارة محرفة من الساسح . وأثمت هذه ليستقيم المعنى .

صاغة كم انسبك بها فضة بعد ذهب . وقد اختلف فيهما ، الأحسن منهما، أو الألف . وكثرة الأقوال فلا تتحادهما في الحسن جهل ذلك فلم يعرف . ومثلتهما عند ذلك كالخصمين واعربت عن فعل كل حرف من ذاتيك الاسمين واقمت فكرى بينهما حكما إذ أدخلتهما باب المناظرة ، ولساني ترجمان يعرب ما استعجم من لسان حالهما على سبيل المحاضرة ، وسميت ما ابتكرته الدرة المنيرة في مناظرة الجسر والجزيرة . فقلت :

حدثنا ابن الحاجب قال حدثنا السدى راويا عن البحر فأجاد وما أخطأ قال : تناظر يوما الجسر المشهور والجزيرة الوسطى وذلك بعد أن زاد البحر زيادة الوفا . وأحمر لونه فحمدت كسره على ما كان فيه من الصفا . ونحر الجروف (١) بنصل تياره فاقبلها ورماها . وتعكر (٢) بالحمرة من اختلاطه بدمائها . وقلع عيون الخزان بأصابعه (٣) . وعمل بذراعه في الجروف عمل مصارع أدار خصمه إلى مصارعه . ومما قيل في ذلك بتضمين :

وسيوف أمواج نيلنا نحرت جروفه فهسى فيه تسلب
وامتزجت بالدماء فانصبغت والدم في النصل شاهد عجب

(١) الجروف هي شقوق في جوانب الخللجان والوديان يحفر الماء في استلها .

(٢) تعكر في الأصل .

(٣) الخزان هم التجار الذين يخزنون الحبوب عند الأزمات لاحتكارها وتحقيق أرباح كبيرة وكانوا يتحيمون الفرص لعلاء الأسعار فبمجرد أن يقل فيضان النيل عن منسوبه المعتاد يندأون في تخريب

الحبوب وإحاثتها . وقد عبر عن ذلك الشاعر المملوكي إبراهيم المعمر بقوله :

حزن الخزان لما أن رأى نيلنا قد عم سهلا وجبل
ورأى الروع عروقا أخرجت سيلات ذات حب فاختل
وبكسى إذا رمدت مقاته زاده الله عروقا وسسبل

وافتحرت الجزيرة الوسطى بدخول الماء إليها من كل خليج . واران بسواقيها يسعى كل روض أريج . وانتشرت قلاع مراكبها المبيضة . كأنها على رأس (١) بها شطفات من فضة . ورتعت غزلانها فى مسارح ظل دوحها المدود . وغنت حمائمها بين أغصانها على هز كل عود . وجوى الجوى يأتى من سحب خليجها أرق أطيوار . وافتخر ماء سدها الجديد بالطهارة على عتيق الخمار . وتباهت باخضرار غوطتها المنشية (٢) وغرقت الكوادي (٣) تحت ظلال سيوفها المجلية وامتد البحر بطول قصر العيني (٤) ففرق بما فيه . وامتاز الخرطوم (٥) بما حلى فيه بعد حلافه . وانتشرت على رأس السد السلطاني (٦) سناجق الأمواج . وخفق كوسات البحر (٧) حين

(١) كلمتان غير مقروءتين .

(٢) المنشية هي المنطقة التي تعرف في العصر المملوكي باسم منشية المهراي وتقع على النيل وتشملها الآن المنطقة التي تحد من الجنوب بميدان فم الخليج ومن الشمال بشارع الدكتور حدوسة (أي هي المنطقة المحيطة بمستشفى قصر العيني) وكانت من أجل متزهات مصر في العصرين المملوكي والعثماني وذلك لوقوع الاحتفال بمهرجان وفاء النيل وكسر سد الخليج بها .

(٣) الكوادي عبارة عن أراضي متصلة بشاطئ النيل الشرقي محاطة بالماء على هيئة جزر صغيرة كانت تقع أمام منشية المهراي، وكان الناس يتزهون بها أيام فيضان، وقيل فيها:

مررت بشط النيل يوما فخلسته	مراتسع عزلان كسوين فؤادي
وناحت على عصف هناك حمامة	سقاها الهوى من لوعتي وبعادي
فإن أنكروا العذال حالي وحالها	أقول هوى قد ضربي وكوادي

ابن إياس، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٥٦ .

(٤) قصر العيني، قصر عظيم مظل على النيل انشأه الأمير شهاب الدين أحمد بن العيني حفيد المؤرخ بدر الدين العيني وذلك سنة ٨٧١هـ/١٤٦٦م . وكان من أحسن المتنزهات بالقاهرة وظل يتمتع بمكانة مرموقة في العصر العثماني، ومحله الآن مستشفى قصر العيني .

(٥) الخرطوم هو الطرف الشمالي لجزيرة الروضة .

(٦) السد السلطاني هو السد الترايبي الذي يعمل سويا على فم الخليج الكبير اثناء السدة الشتوية ويتم افتتاحه في احتفال مهيب عند حدوث الفيضان ووفاء النيل .

(٧) الكوسات هي مسوحات نحاسية يدق باحدها على الآخر .

زمر الهوى وماج . وخيل لأهل مصر أن الروضة (١) واحدة مزت بكاس
 راح . وكل مركب أفردت قلعها حال طيرانها بين السماء والأرض كأنها
 ذات جناح . ورفا الماء كل قامة من درج البسيطة على دقيقة . ودار بها
 كإزار ضم ردفا لظبية رشيقة . ونادى كل محب حبيبه الموعود إن زماننا
 قد صفا . والليلة هذه ليلة الوفا . فانتظر العاشق لنيل المراد . وقعد لقدومه
 بالمرصاد . إلى أن أخبرت الشمس بقدوم الليل لكبسها مع النهار .
 فانصبت من الخجل بالإحمرار . وانكسرت حدة شعاعها من وجلها
 وسارعت للخبا بالغرب ترفل في معصفرات حللها . كأنها خد معشوق
 وقبله المحب فأبدى حمرة الخجل . أو مقلة رمدت من أجل ما فقدت من
 رؤية المحب ما إعتادت من الكحل . فارخى الشفق على أشعة جلها ستر
 رفيعا . وأقام من دونها ملك الغرب حجابا منيعا . وانتظمت بأشعته
 الدجا . المكوفة بيد الرجا . واستند النور إلى الظلام والتجا . وأقبل الليل
 في جيوشه الزنجية . وسناجقه الخليفية (٢) . ترفل جيوشه في حلال السواد
 كأنهم لفقد الضوء لايسين ثياب الحداد . فعن قليل ثبت على بلق بكورها
 وميم الأصائل (٣) . واستخدم الليل كواكب السماء فجملت له المشاعل .
 وانجلت دون السماء في حلبيها المكمل بصفير نجمها . المرصع بجواهر
 كواكبها المنيرة حال نظمها . وبرز البدر عند ذلك من بين سرادقات
 الغمام . وانتشر علمه المذهب بيد الظلام . فالبدر وسط سما والنجوم به
 حفت وجواهر أمواء الزيادات كأنه زرق الديباج ملبسه مكمل وهو رايبه

(١) أهل مصر المقصود بها سكان مدينة مصر القديمة التي تعرف أيضا بمصر العتيقة أو مصر القسطنطا .

والروضة هي جزيرة الروضة .

(٢) السناجق الخليفية هي اعلام سوداء شعار الخلفاء العباسيين .

(٣) هكذا .

بحرات . أم إنه ملك أزرق مفارشه دارت عليه سلاف الماء بكاسات . نهر
 الحجره واما بالنار له من كل لؤلؤة ترهر كالمشكاة . وهو المتوج إكليلا بجبهته
 لما غدا راكبا دهم الدجنات (١) يالها من ليلة حلت الشمس والبدور فيها
 منازل المراكب . فأقلعت في الجو بكل راكب . وكأئنا الكواكب في الليل
 وجوه ذات الخدور . وقد أسبلن لنا في النهور الشعور . وكأئنا استبدت
 الكيمياء من شعاع البدر على البحر العجاج . إذ ألقى عليه من القمر ما
 أحاله زئبقا رجراج . ودار بسويقته الغربية باب عقرب وعقاب . فأكسبه
 صبغا ولكن غير ثابت لشده الاضطراب .

والقطب ملقى يحاكى سفرة نصبت لمشرب راح كروح وقت اسحار
 من حولها أنجم الكاسات مشرقة تسرى لتغرب في الواء أقمار

إلى أن مد القمر على البحر شريطا من ذهب عند الأفول . يقصر في
 يد مرتعش تارة من الهز ويطول . وكان البدر عند غروبه بوثقة خرجت
 من النار . ومالت فسألت الذائب فيها على الماء في النضار . فما اسرع
 انقضاء تلك الليلة بمن عانق فيها الملاح . وكذا ليالى الوفا تهتز فيها العشاء
 بالصباح

بالبيلة كأن مجنوننا مؤذنها قد ظن ان عشاها الصبح فانطلقا
 فاقلق الفجر من نوم وأوهجه فشق ثوبا لغیظ منه وانفلقا

فالتقطت يد الغرب درر النجوم المنتشرة . وقطف جانى الصبح رأس
 الليل المسفره . وهبت نسيم الصبا تبشر بورود الصباح . بمنطقة من الطل

(١) دهم - دُهمَة : اسودّ فهو ادهم . وهى دهماء (ج) دُهم ، (دَجَم) الليل - دجما ، ودحمة : اظلم
 (الدحمة) : الطلحة (ج) دُجم .

بالطف وشاح . وجاء الصبح يخطر في حلتة الدكناء . فتزينت له السماء
بجناح كل فاخنة (١) حسناء .

ولقد تترنم كل شاد مطرب
واجعل صبحك والعبوق بروضته
هذا صباحك قد كست فواخته
والطير غنى فوق عود خلته
والروض قد نثرت على أغصانه
فاغنم صبحك وارد صرف الطلا
ومن لم تدر في الصبح كاسات له
هذان احزم لذه مس نشاء

جُدُّ بالطلا يا ساقى الصهباء
منها الربا معنبر الارحاء
الأسحار حسن الحلة الدكناء
صبا شكى صد الحبيب الاناء
عقد العنناق لآلى الانداء
لانظف مؤر سنانها بالماء
لايذكر الصهباء حال مساء
تغدى بأرواح من السد مساء

ثم برزت عروس النهار من مشرق خدرها . تكفكف عن عينها ليل
شعرها . وتغازل عيون النور . بمقلة نفسها بالنعاس اكسبها الفتور .

والشمس قد كست المياه ملابسا
فكأنما تلك المياه جواشن
منسوحة بيد الأشعة من ذهب
صقلت بعد ذلك فى لهب (٢)

وكان البحر تحف قلاعه فى ذلك الصباح سماء حجبتها أجنحة بيض
الحمام . وكان مراكبه خيول طردها النسيم وله بيده زمام . ونادى ابن أبى
الرداد (٣) سبحان من هذا فى خرائن ملكه فهو الواحد . وبشر متولى الأمر

(١) الفاخنة نوع من الحمام المطوق، إذا مشى توسع فى مشيه وناعد بين جناحيه وانطبه وتمايل (ج) فواخت .

(٢) جواش : دروع ، صقلت : جلجت .

(٣) ابن أبى الرداد، هو أول مسلم تولى قياس مسوب ماء النيل عندما انشأ الخليفة العباسى المتوكل على الله مقياس النيل الحالى (اثر رقم ٧٩) بأحر جزيرة الروضة سنة ٢٤٧هـ واستمر اسأؤه واحفاده يتوارثون مهمة قياس مسوب ماء النيل فى مقياس الروضة حتى نهاية القرن الماضى .

من صاحب الأمر بالوفا فخرٌ لله ساجداً لتزايد الفرح وتعظيم الطرب .
وعادت المراكب بقلاع ملفوفة كأجام القصب . وحصل الكاسر على
المكسور . وكسر السدان فياله من يوم مشهور . فأما السد السلطاني
جبرت بكسره القلوب . وخرج ماؤه كالمنصب من ضيق الأنوب . مسرعا
كالسهم من شدة المرور . فعجبنا من قوة ذلك المكسور . وألقى نفسه على
رأسه من الأوج إلى الخضيض . ورمى الناس من إمتداده طولاً وعرضاً في
الطويل العريض .

جرى النيل حال الكسر كالسهم فاعجبوا لما قد جرى مع ان ذا فعل مكسور
ومد مد سيف الخصب للمحل خلته على ضرب عنق الجذب كان بماخور
فغمر السباع (١) خلفه بعد الوثبة على عجزها . وملا بطن بركة
الفيل (٢) من أمواجه سيوفا لأنهار عجزها . وحرك النفوس لرؤية سوق خيله
تحت عمر شاه (٣) . وقنطر بقزدمر (٤) إذ ملأ قلبه خوفاً من شدة جريه

(١) السباع، المقصود بها قناطر السباع التي كانت على الخليج الكبير (الخليج المصري) وموقعها الآن ميدان السيدة زينب بالقاهرة، وأول من بناها السلطان الظاهر بيبرس ووضع عليها سياحاً حجرية تمثل رنكه (شعاره) الخاص به ثم هدمها السلطان الناصر محمد بن قلاوون وأقام أخرى مكانها سنة ٧٣٥هـ / ١٣٣٤م .

(٢) بركة الفيل هي إحدى برك القاهرة الهامة في العصر المملوكي ومن أحسن متزهاتها ويمثل موقعها الآن حي بركة الفيل بالسيدة زينب القاهرة . (انظر عنها بالتفصيل : محمد الششتاوي، متزهات القاهرة ص ١٤٦ - ١٨٨ .

(٣) عمرشاه المقصود قنطرة عمر شاه على الخليج الكبير والتي كانت تقع في نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصري سابقاً) الذي حل محل الخليج عند ردمه سنة ١٨٩٨م أمام حارة عمارة (شريف عمر شاد) في مواجهة جامع قمرز الأحمدي (اثر رقم ٢١٦) شمال ميدان السيدة زينب بالقاهرة . وقد انشأها الأمير عمر شاه في سنة ٧٤٥هـ / ١٣٤٤م .

(٤) قزدمر المقصود قنطرة قزدمر على الخليج والتي عرفت أيضاً بقنطرة درب الجماميز ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصري) تجاه مدخل شارع قنطرة درب الجماميز الموصل إلى حارتى الحنفى والهياتم جنوبى شارع مجلس الشعب بجوالى ٢٠ متراً . وقد انشأها الأمير قزدمر سنة ٧٣٠هـ / ١٣٣٠م لتسهيل له العبور إلى حكره بالبر الغربى للخليج .

وحشاه . وخرجت اجناب سنقر (١) أرحام أمواجه بالمخالب . وسد من باب الخرق (٢) تياره الطرق والجوانب . وركب لطرده الأمير حسين (٣) في الخيل كل أحمر كالسيل ، ونادت أمواجه سنى موسكى (٤) الحديد تعرض فى بطن البقرة (٥) فهذا يوم عيد . وادخلى من باب القنطرة (٦)

(١) سنقر المقصود قنطرة آق سنقر على الخليج ومكانها اليوم على شارع بورسعيد (الخليج) تجاه مدخل شارع إسماعيل باشا أبو جيل (شارع درب الحجر سابقا) وقد انشأها الأمير آق سنقر سنة ١٧٢٥هـ / ١٣٢٥م . ليتوصل منها إلى جامع وحكره على البركة الناصرية بسوق السباعين بالقاهرة .

(٢) باب الخرق المقصود به قنطرة باب الخرق التي كانت تقع على الخليج ومكانها الآن بشارع بورسعيد (الخليج المصري سابقا) مواجهة لأول شارع تمت الريع بميدان باب الخلق . انشأها الملك الصالح نجم الدين أيوب سنة ٦٣٩هـ / ١٢٤١م ليبر عليها إلى الميدان السلطاني الذي انشأه بارض اللوق ، وباب الخرق نفسه أحد أبواب سور القاهرة الغربي موقعه الآن بجوار محكمة جنوب القاهرة الابتدائية ، وكلمة الخلق تحريف للخرق .

(٣) الأمير حسين مقصود به قنطرة الأمير حسين على الخليج ومكانها اليوم بشارع بورسعيد (الخليج المصري سابقا) تجاه مدخل حارة الأمير حسين المواجهة لشارع الاستشفاء شمال محكمة جنوب القاهرة الابتدائية (محكمة الاستشفاء سابقا) ، وقد انشأها الأمير حسين فى سنة ٧١٩هـ / ١٣١٩م ليتوصل منها إلى حكره جامع المناصره (الرقم ٢٣٣) .

(٤) موسكى المقصود قنطرة الموسكى على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (الخليج) مواجهة لشارع الموسكى . وانشأها الأمير عز الدين موسك المتوفى بدمشق فى شعبان سنة ٥٨٤هـ .

(٥) بطن البقرة هى بركة بطن البقرة التي عرفت ببركة الأزكية نسبة إلى الأمير ازبك من طليح الاتابكي الذي اعاد حفرها وتعميرها وانشاء المنشآت الجلييلة حولها فى الفترة من ٨٨٠ - ٨٨٩هـ (١٤٧٦ . ٤٨٤م) ومكانها الآن حديقة الأزكية بمنطقة العتبة الخضراء بالقاهرة .

(انظر عنها بالتفصيل : محمد الششتاوى / مترهات القاهرة ص ٢٠٩ - ٢٣٧) .

(٦) باب القنطرة المقصود به قنطرة باب القنطرة على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (الخليج المصري) امام مدخل شارع أمير الخيوش الجوانب (شارع مرجوش) ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها تقع امام باب القنطرة وعلى الرغم إن الباب سابق فى انشائه لإنشائها إلا أنه تسمى باسمها فيما بعد . وهذه ثانيا قنطرة عملت على الخليج بعد قنطرة عبد العزيز بن مروان وقد أنشأها حوهر الصقلى سنة ٣٦٢هـ / ٩٧٣م ليبر إلى البر الغربي ليصل إلى المقس وأرض الطبالة اثناء استعداده لرد غزو القرامطة خارج القاهرة .

بعد ان تقبلى الاعتاب . واجلبى بذاك الباب الصحيح قلوب الأحاب .
وأحملى من المتجر للحزوبى (١) الافا من السكر . واطهرى اثره ربيع إذ
هديرك فى خليجه صفر .

كل هذا بعد أن كسر السد الثانى (٢) . فى ذلك اليوم السلطانى .
فخرج ماؤه كالسهم من الوتر . أو كلمح البرق إذا بدر . كساع مليح قال
فيه من يهواه سبحان من اجراه ما احلاه . سل سيفا وقد سعى نحو جذب
طالبيا قتله فما أجراه . ثم أمسى محدثا عن ربيع كل معنى زها فما أرواه .
أظهر الله به لأهل اليمن واليسرا . حين علا تياره أسفل القنطرة العسرا (٣) .
وحرر المقسى (٤) من ترادف أمواجه . وفاتر حسانه . وجرى الناصرى (٥)
سيف تياره من قرابه . وتسطن الجسر فوقف الحاجب (٦) ببابه . وقبل له

(١) الحزوبى المقصود به قنطرة الحزوبى على الخليج ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (الخليج)
مواجهة لدخول شارع سكة التجالة . ومن المرجح أن سميتها السلطان صلاح الدين الأيوبى على يد
وريره بهاء الدين فراقوس حين مد سور القاهرة الشمالى فى سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م إلى المتس .

(٢) السد الثانى هو السد الذى كان على فم الخليج الناصرى .

(٣) القنطرة العسرا هى قنطرة الكتبة على الخليج الناصرى ويمثل موقعها الآن نقطة تقاطع شارع طلعت
حرب (سليمان باشا سابقا) مع شارع ٢٦ يوليو (شارع فؤاد باشا) وقد أنشأها القاضى شمس الدين
عبد الله بن أبى سعيد الشهير بعبريال ناظر الدولة أيام الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ /
١٣٢٥ م ، ثم عرفت فى العصر العثمانى باسم قنطرة المغربى .

(٤) المتس المقصود به قنطرة المقسى على خليج فم الحور ويمثل موقعها الآن نقطة تقابل شارع رمسيس مع
شارع ٢٦ يوليو (فؤاد) مواجهة لقنطرة الكتبة وقد أنشأها الورير صاحب شمس الدين أبو الفرج
عبد الله المقسى فى أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين (٧٧٨ - ٧٨٣ هـ / ١٣٧٦ - ١٣٨١ م) .

(٥) الناصرى هو الخليج الناصرى الذى حفره الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥ هـ (انظر ما سبق
ص ١٢) .

(٦) الحاجب اشارة إلى الأمير سيف الدين بكتمر الحاجب الذى كان بحرى فى اقطاعه بركة الرطلى
والجسر من صمن ارض الطالقة ، والمقصود هنا قنطرة الحاجب على الخليج الناصرى ويمثل موقعها الآن
نقطة فى شارع الظاهر الذى حل محل الخليج الناصرى فى مواجهة مدخل شارع البكرية بحى الظاهر
بالقاهرة وقد أنشأها الأمير بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ / ١٣٢٥ م .

الأرض الماء المسكوب فخلع عليه من الظل الممدود أحسن ثيابه . وسقيت أصول جماميزه فانعقدت على أعمدة أغصانها قبة من السندس الأخضر . أو تاج على رأس خرطوميه من زمرد رصع من الثمر بياقوت أحمر . وقبل خرطوميه فم البركة (١) . فرشفت منه أحلى رضاب . ورويت مما وردته بأعذب شراب . وتباهى خرطوميه بخمر رضا به الأحمر . تحت شاربته الأخضر . وصار وسط الماء ككثيب تكون من عنبر . وكأما تلك المقاصف (٢) مراتع الغزلان أو غوطة روضة أنبتت قضباناً من بان .

مقاصف أحكمت للقصف ساحتها بها المسرات حنت فهى حانات
شراب أدنانها يشفى العليل ومن نسيمها يعثرى الصاحين سكرات

وكان بركته المعروفة (٣) التى هى بالمحاسن محفوفة دون امتلاء بالراح . أو سماء زينت بكواكب الوجوه الصباح . وقيل فى ذلك .

سما ترى فيها القصور منازل يحل بها بدر وشمس وكوكب
ومستقرات السمع منها مراكب وفى الليل جرم النور فى الماء استهب
أهى فلك عليه المنازل تدار . أم مرآة للسما نجومها باللجين يد البدر
والتبر شمس النهار . وكان جزيرة المهتار (٤) كثيب تكون من مسك ودار
به نهر من السلسبيل (٥) أو خال أسود تبدى فى جوهر خد صقيل (٦)

(١) فم البركة أى فم بركة الحاجب المعروفة ببركة الرطلى .

(٢) المقاصف هى أماكن الترفيه وتناول الطعام والشراب . والنسيم كانت متشرة على ضفاف الخلدجان والبرك والحرر بالقاهرة . (٣) هى بركة الرطلى .

(٤) جزيرة المهتار إحدى الجزر الصغيرة بالنيل وكانت تقع شمال جزيرة الرمالك .

(٥) السلسبيل فى اللغة هو الشراب السهل المرور فى الخلق لعذوبته ، وهى الخمر واسم عير فى الحنة أو وصف لكل عين عذبة سريعة الحريان (ح) سلاسيب وسلاسيب .

(٦) الصقيل ؛ الخلو . يقال سيف صقيل ومعدن صقيل (ح) صقال .

هذا والماء يسحب لا يخشى حاجبا ولا بواب . وقطع ذيل التمساح (١) مذ خاص للموت في معارضته عباب . وتلا ما يليه من الخلجان . « مرج البحرين يلتقيان » . فالتقى في ذلك الخليج الأخ باخيه (٢) . فاعتنقا لبعده السفر وقبل كلاًهما ثغر من يليه . وأدرك اللاحق السابق واتحدا في الطراد . وساقتهما يد القدرة العظمى لرى البلاد ونفع العباد . فوردت من سلسالها (٣) القنطرة الجديدة (٤) ما هو ألد من عتيق الراح . وغرق فيهما قناطر الوز (٥) والجناح . ونزلت قبائل سعد ببني وائل (٦) ولبس خليج الزعفران (٧) للفرح بتلك القبائل . واركز الملكان على سد

(١) ذيل التمساح هو مكان كان يقع بجوار قنطرة الحاجب به مقاصف لجلوس الناس للفرجة زمن النيل فيجتمع فيه يومى الجمعة والسبت مالا يحصى عددا .

انظر : ابن أبي السرور البكرى ، النزعة الزهية في ذكر ولاية مصر والقاهرة المعزية (مخطوط بدار الكتب برقم ٢٢٦٦ تاريخ) ورقة ٧٠ .

(٢) التقاء الخليج الناصرى بالخليج الكبير يمثل الآن نقطة التقاء شارع الظاهر بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) .

(٣) السلسال في اللغة هو الماء العذب الصافى السلس السهل ، إذا شرب تسلسل في الخلق .

(٤) القنطرة الجديدة كانت تقع على الخليج الكبير ويمثل مكانها الآن نقطة التقاء شارع الظاهر بشارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م عندما انتهى من حفر الخليج الناصرى الذى كان يصب في الخليج الكبير بجوار تلك القنطرة .

(٥) قناطر الوز كانت تقع على الخليج الكبير ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع بورسعيد المصرى) تجاه حارة قنطرة الظاهر ، وقد أنشأها الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ على يد الأمير قدادار والى القاهرة آنذاك وكانت من أحسن متنزهات القاهرة ، وكانت تصل بين الحسينية شرقاً إلى أرض البعل التى محلها الآن الشراية ومهمشا غرباً .

(٦) بنى وائل مقصود به قناطر بنى وائل على الخليج الكبير والتي تقع فى الراوية الحمراء فى النقطة التى يمثلها اليوم مدخل الراوية الحمراء من شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقاً) وقد أنشأها الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ وعرفت ببني وائل نسبة إلى إحدى قبائل العربان التى كانت بمصر بحدود مدينة القاهرة فى العصر المملوكى وكانت منازلهم شرقى الخليج . ولهذا سمي الحى الذى كانوا به حى الوائلى (الوايلية) نسبة لهم .

(٧) خليج الزعفران كان يتفرغ من الخليج الكبير من عند جامع الظاهر ويسير باتجاه الريداية (العباسية) =

الأميرية (١) فضمتها لصدره . وامتد تواضعها من يديهما امتداد من إتكا لنحره . فلم تتركها من الخلجان والبرك مفتونا بزيارتها ولا مفتونة . وعم جودهما من ذلك الحجم الفقير العاقلة والمجنونة (٢) وتراجعت المياه وقد جعد النسيم متونها وفرك الحائك نسيج من الحرير الأحمر أرفع شبك فيا لله من بلدة فى النيل . وما انزه مفترجاتها تحت ظل غصون دوحها الظليل

= ويمثل مسار الخليج شارع العناسة الآن ويستمر مساره شمالا فى شارع الخليفة المأمون ويخترق احياء منتبة البكرى وسراى القبة والزيتون والمطرية حيث كان يروى أرضها وربما كان منتها هالك أو متصلا بخليج آخر ينتهى إلى الخليج الكبير أو إلى بركة الحاج .

(١) سد الاميرية كان يقع بجوار قنطرة الاميرية التى يمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد فى تقاطعه مع شارع السواح، وكانت آخر القناطر على الخليج من ضواحي القاهرة فى الاميرية فيما بينها وبين المطرية، وقد بيت أيام ناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على يد قنادار والى القاهرة وكان يتم عدها سد الخليج وكان يفتح فى يوم النوروز وهو أول السنة القبطية ويقوم بفتحه والى القاهرة ليروى الاراضى على جانبيه . ويوم النوروز هو أول شهر توت فى السنة القبطية الموافق ٢٣ اغسطس الميلادى .

(٢) المحنونة . كان عبارة عن قو (سرب) يتصل بالخليج الكبير ليوصل الماء إلى بركة الغيل كان أصله قنطرة تعرف بالمحنونة كانت تهدمت زمن المقرئى (ت ٨٤٥هـ) وذكر انه تبقى منها بقية عقد ناحية الخليج كان قد عقده الامير الطيبرس وبى فوقه منورها، ومن الطريف ان اسم قنطرة المحنونة يرتبط باسم نانيها الامير الطيبرس (ت ٧٠٨هـ / ١٣٠٨م) حيث كان الماء يندفع من الخليج ليملا السركة المنخفضة بسرعة محنونة فسموا القنطرة المحنونة وكان الامير الطيبرس هذا يعتره الجود وقد نلقب بالمحون فجاء هذا الارتباط، وكان لهذا الامير محبة زائدة للعقراء والصوفية ولهدا سى هذه القنطرة لأجل الشيخ شهاب الدين العاير ولفقرائه ليصلوا إلى زاويتهم بالبر العربى للخليج وقد نظم الشعراء فى ذلك الموضوع أبياتا يتفكحون بها منها قول الشاعر علم الدين س صاحب :

وقد عحبت من الطبرس وصحة وعقولهم بعقوده منستونة

عقدوا عقودا لاتصحح لانهم عقدوا لجنون على مجنونة

وموقع قنطرة المحنونة الآن شارع بورسعيد (الخليج المصرى سابقا) فى نقطة جنوب جامع غيطاس بك وكانت هذه القنطرة (السرب) موجودة حتى آخر القرن الماضى حيث ذكر على باشا مبارك ان الماء كان يصل منها إلى جنابى المنارل والقصور امامها وإلى البيجمون الباقي من بركة الغيل .

فتحت أصداف أفواه أهلها بيد مفترجاتها . فالقت ما اكنزته من در
بحورها حين وردت وعذب فراتها . ومما قيل :

أسكان مصران حقا ثغوركم لنيلكم أصداف مافيه من درر
أفادكم في اللفظ ماروته الذي يحل بها ما حاز في جمل السحر

فلفظ شعرائها هو الجواهر المكتسب من ماء بحرهما الزلال . ونكت
عوامها مما حوى من رقيق الآل . فهم ثغور الواردين لنيل مصرهم أصداف
در السلسبيل . إذا كان الأجاج (١) الدر فيه فلم هو في الزلال مستحيل .
أسمت مصر للشاعر المجيد بيت القصيد . وأصبح رباها موشحا بذلك
البحر المديد . كأن منعطفات نيلها خلاخل لسيقان عمد قصوره القوائم .
أو أساور المعاصم الدعائم . أو ذوب عقيق صاغته يد الزيادة من المكارم .
لأصابع بخيل شاطئه خواتم . وقيل :

إذا قيل في الشام مدحا جنة خلقت وصح هذا وسلمنا لإثبات
فمصرنا روضة في النيل قد جمعت في كل مفترج الآف جنات

خصوصا في مثل عامنا هذا الذي روى نيله عن الطوفان كل الطرق .
وحدث عن ربيع بإسناده للنطق . وسما بأرضه فاقل به جناح النسر
الطائر . وعمل سيوف أمواجه في أرجائه حتى أقلب الجسور على الجزائر .
وفي ذلك قيل :

كل للنيل نار أو الجروف به مطلوبة أمها سلطان تيار
تصادمت ظهرت واستحكمت نحرث فاحمر تيارها من فتك بتار

(١) الأجاج ما يلدغ الفم بمرارته أو ملوحته .

كان مراكبه طيور قاصدات نهر الحجر للورود . أو مداخن ترقبها أيدي
الأمواج لصون قناديل الكواكب ذات الوقود . إذا أقلعت ليلا براكبها في
ذلك البحر المديد . ورام إن تناول الثريا بيده ما كان ذلك عنه بعيد . كان
السابع فيه قد اتخذ إلى السما سلما .

كأنما مصربه جنة قطوفها مزهرة دانسة
ووجنة الورد كلظم السندا فى روضها محسرة دامسة

فدفقت أمواؤها . وتأنقت بالحضرة أرجاؤها . وغنت طيورها .
وتفتحت زهورها . وفاح عبيرها . وتزخرفت قصورها . وتسورت بغدرانها
وتدملجت بخلجانها . ولما تسنقت بالقصور . وتمنطقت بالبحور . وحوت
كل مفترج تكتحل برؤيته الأعين . وتنطلق بوصفه الألسن . باهى الجسر بما
أعطى من اللطافة ومد باعه . فانشده لسان الوقت يد الخلافة فتقدم وهو
أحق بالتقديم للتذكير . وإن كان للجزيرة فضل السبق فالتأنيث أوجب لها
التأخير . فقال :

الحمد لله الذى امدنى بفضله جسرا لأهل السعادة . وأشهدهم
محاسنى فإنى كالجنة سكننا لأهل الشهادة ، وأشهد ان لا إله إلا الله
وحده لا شريك له شهادة من أمده الله بفضله العميم . وأشهد أن سيدنا
محمدا عبده ورسوله النبى الكريم . صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه
الأزاهر . ما حفظت فى النيل الجسور وغرقت الجزائر . وبعد .

فإن الله جعلنى ملك المفترجات بهذا الأقليم . وأوقف الحاجب
ببابى (١) يمنع عنى اللثيم ويأذن فى الدخول لكل نديم كريم (٢) . كأننى

(١) (ببلى) فى الاصل .

(٢) (كريم) فى الاصل .

جنة فجرت فيها الأنهار . أو روضة شب نسيمها فغنى بلبلها على عود
وطار . أنسى الغريب حب الأوطان . وأنشئ للبيسط من المحاسن أفنان .
كيف لا وأنا ملك تراه النواظر . الحاكم على أحسن البرك المستخدمة في
جوارها الطف الجزائر . ثم أنشد يقول :

جعلت عليك مفترجات مصر لذا أوقفت لى بالباب حاجب
وحين تقاسم الفرج المعانى جعلت الحسن على قسما ونائب

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام . وما أبداه من معنى النثر
والنظام . ابتلت خدودها بالدموع من الحنق . وقالت مدح الجسر نفسه وما
صدق . ثم اخفت حدة الشباب . وأظهرت خد وبتات الحجاب (١) .
وقالت الحمد لله الذى أخرجنى من البحر كالدرة المنيرة . وخصنى بأهل
العلم والأدب وناهيكم بعلماء الجزيرة . وأشهد أن لا اله إلا الله وحده لا
شريك له شهادة يطهر بها فى بحار الإيمان قلبى . وأشهد أن سيدنا
محمدًا عبده ورسوله ينقذنى من بحار كربى . صلى الله عليه وسلم وعلى
آله وأصحابه البدور . ما اتصلت الماء بالجزائر وانقطعت الجسور . .

وبعد . . فإن الله خصنى بأعظم نعمة . إذ غمسنى فى ماء الرحمة .
عجنت طينتى بماء السلسبيل . وأشفى طيب نسيمى العليل . وقامت
قصورى فى الماء . وكادت أن تلحق بالسما . فأنا جنة الناظر وبهجة
الخاطر . وأنا روضة هذا الإقليم الجديدة . والمنشئة القريبة العهد (٢) فما أنا
من البحر ببعيدة . ثم انشئت تقول :

(١) وأظهرت خد وبتات الحجاب هذه العبارة محرقة من النسخ ، وأنت هذه ليستقيم المعنى .

(٢) بنات الجزيرة وطهرت للموجود بعد سنة ٥٧٠٠هـ .

قال : فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة اعتل نسيمه . وتدلى خرطوميه .
وقال : أصبحت ذات الخدور . تطاول الملوك بالقصور . إن من افتخر
بقصوره كفاه ذلك من عار . ومن استطال بفجوره قصر الندم من لسانه
أشبار . أتذكرين بيوتك المجلول طينها بالساس . المبنية على غير أساس .
ففى كل عام يقصر منها ما طال . ويقصف غصونا بوقوعه على النساء
والرجال . ومادامت عتباتك تطرس بالماء الهارب . فيخرب منك فى كل
عام جانب . فاحفظى لسانك الأبكى . أتشبهين بالروضة وقد دار بك ما
دار بها من (١) هدم كل دار . ولو رصداك عاما لقلع منك الآثار . أتقولين
أنا جنة الناظر بمقاصير مقاصفك الرائعة فيها الغزلان . أم بقبة الزمرد المعلق
فيها قناديل المرجان . هل يعرف بمقاصير الجنان غير مقاصيفى البهية . أم
بقبة الزبرجد المرصع بالمرجان غير جما ميمزى (٢) السندسية . أم بالغرف
المزخرفة غير ما حويت من بيوت . بنيت على أمكن أساس أوصلها بأعظم
ثبوت . أنا ملك المفترجات قريبا والبعيد . وتحت نظرى مائة قصر مشيد .
عقدتهم لحفظ جوانب بركتى وقاية . ولى عليهم عموم النظر والولاية .
فاحفظى لسانك واعرفى قدرك . وإلا أمرات (٣) أن يدوم فى حجر الامواء
حجرك ثم انشد يقول :

أيا جزيرة كفى القول حسبك ما أنت به من عظيم الماء قصوره
لو لم تكونى على غير الطريق لما فى حجرة الماء صرتى اليوم محجوره

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام . لظمت بيد الماء خدها .
وقطعت بنصل زيادته حدها . وقالت . أيها الجسر الحقيير . أتناظرنى

(١) (م) اضفتها ليستقيم المعنى . (٢) أشجار الحمير .

(٣) وإلا أمرت = وأمر فى الاصل ، فالتبث الاولى ليستقيم المعنى .

وخلفى البحر الكبير . ألك غير مجراة ماؤها لرقته كالمريض . إن شبهتها
بخليجى أوقعك فى الطويل العريض . أنا الذى أرضعتك ثديى حتى
رويت . وسقيتك من ماء سدى ماء الحياة فعشت بعد أن كنت فنيت .
ولى فضل سبق المشهور . وهو لعمرى غير منكور . مع أننى أنا المتأخرة
عنك بأيام . ويزيدنى ذلك عنك فى الإكرام . وبعد ذلك يظهر لى قرط
وكتان . تقصد رؤيته من كل مكان . فبماذا تناظرنى وأنت قصير المدة .
وبأى لسان تستطيل يا قليل المودة . ثم أنشدت تقول :

لنا فضل سبق ثم تأخير مدة فتسمو بماذا يا قليل المودة
سندهب عن قرب كأنك لم تكن وبعدك ياذا الجسر أحطى بمدة

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة . رأى فى نفسه فرط الذكاء فانتصب
لرد الجواب وما اتكأ وقال : يا مقطعة الأوداج . وياعدة ملعب لصغار
الأمواج . لولا عظيم خسفك الذى أنت منطوية عليه . لما تركت البحر
الكبير خلفك ولم تلتفتى إليه . أتذكرين رقة خليجى الساحب من تياره
لمن ناواه مرهف . واتعرضى بعرضك فأنت لا شك من جميع الخللجان
أعرض وأخسف . مع انك لو لم تكونى لخدمتى جارية . لما ارتضيك لى
ساقية . فقولك لى سقيتك فيه رفع لمقامى . وخفض لقدرك المنتصب
مقامى . وما سبق يفضل به السابق الحسيس . لو كان ذلك ما خلق الله
قل آدم إبليس . مع انك إن عددت نفسك من السابقين بدخول الماء .
فنحن من السابقين بحلول البناء .

ولو سلمنا ما ادعاه لسانك فى حقنا من قصر المدة . لآزددنا بذلك
شرفا على ما انكرته من المودة . فإن ليالينا بالسرور منيرة . وأيام السرور

قصيرة . هذا مع أن لى بركة شتاؤها كالمصيف . وربيعها كالخريف . نسيمها العليل ضامن الصحة . ولا ينقطع منها أبدا فرحة . إذا اخضرت جوانبها حكمت عذار الحبيب . وإذا هب نسيمها كان لكل داء طيب . يطيب بها الصبوح والغبوق . ولا يملها الناظر فى غروب وشروق . تذكر سكانى عهودى القديمة . وهى لى بعدى ندىمة كريمة . ويجلسهم حاجبى من حدائقه على الاحداق . ويحجبهم من قصب السكر بالعسالة الرشاق . ويبسط لهم بسطا من السندس الأخضر . ويربهم من أرضه عيون الأعداء كيف تنفجر . ويعطف عليهم لطيف نسيمى فيسكرون . وينشر لهم طى حديشى القديم فيشكرون . فلا سلانى أبدا ندىمى . ولا نقض قط رسومى . فإن افتخرت بالقرط والكتان . فهما من متعلقات النسوان . أتناظرينى ولى حاجب يحجبنى برماح من قصب السكر . مر كموزه فى أرض من غير عنبر . وسيوف من الغدران . تغمد فى شقائق النعمان . ويفرش أمامى فرشاً من السندس وخيام . وينشر تجاهى زهوراً مفتحة الأكام . وملخص القضية . أنا ملك المقترجات النيلية .

إذا قيل عنى مدتى قد تقاصرت
ومع ذلك لم تجفوا الموالى مودتى
فماضرنى هذا وعهدى يجدد
ولسى حسنات لم تزل تتعدد

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر من الكلام . وماقطع به حجتها من النثر والنظام . أو سقت معاديبها (١) لمعاندة معاديبها . وقالت : يا جسر تجاسرت على فى الخطاب . وأخطات فى هذا الأطناب . أى محاسن لك تعدد وبيابك جنهم بلا خلاف . لأن الزبانية تسحب المجرمين فيه للتاف .

(١) أو سقت معاديبها : جمعت وضمت معدياتها .

ولا يدخل أحد إليك إلا إن تحنى . وفى ذلك إشارة إلى الخنا (١) . ولولا ما وراءك وقدامك . لنكس الدهر أعلامك . وهذا دليل على حظ قدرك والانهمال . وتلاشى أمرك على كل حال . والعقل يشهد إننى مليكة كل خليج . وعين كل مفترج بهيج . ثم أنشد يقول .

إن كنت تجهل يا جسر المقام فهذا اسمى وحسنى مشهور ومشهود
إننى كجنة عدن فى تزخرفها مائى وظلى مسكوب وممدود

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة فتحت له خوخة (٢) للجدال فاستطال . وقال : ياسلية الذوق . ومن طلعت عند النيل من فوق . لو لم أكن مطلب الأفراح . لما راحت على بابى الأرواح . وما انحنا الدخول إلا تقبيلًا وحرمة للحاجب الواقف ببابى . فلو صدقت إنك مليكة الخلجان الساحبة . فأنت محتاجة إلى نائبة . وإن صح إنك أعين المقترجات باتفاق كل ذى خل وصاحب . فببابى من يحط قدرك عنه والعين لا تعلق على الحاجب . مع إننى جالى صدا القلوب . وجامع شمل المحب بالمحبوب . بنيت للقصف مقاصفى الموصوفة . وركبت للبيسط مراكبى اللطيفة . ثم أنشد يقول :

(١) الخنا : المعشر فى الكلام .

(٢) الخوخة فى اللغة كوة فى البيت تؤدى إليه الضوء ، وباب صغير وسط باب كبير .

وفهم أيضا من كلام المقرئى عن خووخ القاهرة (الخط ج ٢ ص ٤٥ - ٤٧) أنها تطلق أيضا على أبواب بعض الأزقة والعطوف الصغيرة أو على الأزقة نفسها .

وجدير بالذكر إن نقول ان أبواب الحصون والأسوار والخانات والقصور فى العصر الوسيط مصر وغيرها كانت ضخمة مصممة بالحديد المثبتت تسامير مكويحة ويوجد فى وسطها خووخ عمارة عن فتحة على هيئة باب صغير للاستعمال اليومى ، دون الحاجة إلى فتح الأبواب الكبيرة الا عند الضرورة لخروج قوات الماليك أو رجوعها السلوك ج ٢ ص ٥١٥ حاشية .

أتناظرى الجسر الذى هو جنة فيها القصور تضم حور العين
أنهارها تجرى بها السقى التى قد ركبت لليسط بالتحسين

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر أرسلت أدمعها نهرا من الخلق .
وكادت تشرف فيه على الغرق . وقالت : يا جسر تجاسرت على الكلام .
وذكرت مراكبك المنكسة الاعلام . أنسيت قلاع مراكبي المتفردة .
وسناجق أعلامها المتعددة . التى تخالها فى سماء مائى قطع الغمام . أو
على غصون صواربها أجنحة بيض الحمام . فترك هذا الغلط العظيم . والا
نتقاوى بالقول السقيم . ثم انشدت تقول :

جوارى كالعرائس شايلات مقادم إزارهس لحوض ماء
وبالأبواب تحجببنى ملوك على الحجاب هم أهل الولاء

فلما سمع الجسر ما قالته الجزيرة زادت حدة نيرانه لالتهابه الشديد .
من عظم الوقيد . وقال : ألك بواب تقف عليه الملوك . غير الباب المترسم
عليه قديدار الملوك . فلو استعار وقوف الملكين بسابك . جملة من
أصحابك . فصاحب كل عقل وتمييز . يعلم أنك لم تكونى غير دهليز .
ولولا ذلك ما وصفوا فيك الزرابى المقطعة بالترخيم . ولا وطىء حر وجهك
فى كل نهار وليل بهيم . وإن افتخرت بأن البحر عليك دوار . فسيدتك
فى جوارى جعلتها باسم المهتار (١) اتناظرين بموردة الجس (٢) خرطومى

(١) المهتار لقب من القاب الوظائف من طائفة أرباب الخدم فى دولة المماليك وهو يطلق على كبير كل
طائفة من غلمان بيوت السلطان فيقال مثلا مهتار الشراب خاناه ومهتار الركاب خاناه، وأصل الكلمة
فارسي معناها الأكبر .

(٢) موردة الجس كانت ممتدة على النيل وفيها فم الخليج الناصرى، ويمثلها الآن المنطقة المحدودة بين شارع
عائشة التيمورية جنوبا حتى شارع عبد القادر حمزه شمالا بحار دن ستى، وهى تواجه الجزء الجنوبي
من الجزيرة الوسطى .

الشهى أم بشاطئك التى تنزل فيه النواتية (١) وجه مقصفى البهى . اغزلى
كتانك وتحلى بقرطك . واطلبى مغزلا لسد فم الخور (٢) من وسطك . ثم
انشد يقول :

تحلى بقرط يا جزيرة واطلبى لك مغزلا لا تحتاجه ذات كتان
وفى سد فم الخور من وسطك اجهدى بأن تدخلى فيه قراميط كتان

فلما سمعت الجزيرة ما قاله الجسر غرقت فى بحر من الخجل .
واندرست رسوم أعتاب بيوتها من البلل . فقالت : يا جسر استطلت
بالفجور . وقذفت ربات الخدور . ولقد كان الأولى بك العدم حال
وجودى . فهل أنت إلا من بعض جنودى . فلولا ماء سدى البكر . ما
كان لخوختك من ذكر . ولولا شريت منه ياسمينتك الطارحة . ما تمسكت
بطيب تلك الرائحة . فاحفظ يا جسر لسانك الجسور . والارسمت بقطع
الجسور . ثم انشدت تقول :

ايا حسر صر ذا اللسان الذى على مثلى اليوم اضحى جسور
وان لم تكن ماسكا حرمتى والإرسمت بقطع الجسور
فلما سمع الجسر ما قالته زادت حدة نصل تياره . وسحب من خليجه
مرهف بتاره . وقال بلغ من قدر منى يطاء حروجها الحافر المعقود . ان
يذكر بلسانها الجسور افرحين يا جزيرة بالفشار . وكل ما قيل فى وصفك

(١) النواتية هم الملاحون الذين يديرون السفن .

(٢) الخور فى اللغة هو مصب الماء فى البحر ، وقيل هو خليج فى البحر ، وهو المظمن من الأرض ، وهو

المخفص من الأرض بين مرتفعين

وكان خليج فم الخور يخرج من النيل من المكان الواقع بين الآن ميدان عيد المعمر رياض وكان مواجها

لنصف الجزيرة الوسطى .

مستعار . الست موردة الاحلاف (١) والسايبة الاطراف . ان وافاك داخل
اخرجه عن طوره زلق وحسنتك أو ريان قلب نشين حرنستك فان لم
تظهري حشمة الحرائر . أمرت بتغريق الجزائر .

فقال الجزيرة : ترا من أنت يا ساهي . حتى صرت الأمر الناهي . تبصر
فإننى مليكة المقترجات بلا نزاع . ولولا ذلك ما انتشرت على رأسى
شطفات القلاع . ألك بر مثل برى . أو بحر عرض بحرى . لو لم تكن
البرية تزينك للعيان . لكنت كآحاد الخلدجان .

قال الجسر : اتطعمين نفسك الجزر الفارغ . وتنفلقين بحبال التمر
البازغ . هل يعرف بملك المقترجات غيرى . إذ ببابى حاجبى . وتسلطنت
فاتخذت البسط نائبى . بحرى بقدر مراكبى . وبرى بر مراكبى . أتفتخرين
بقلاعك التى تحط منها عند دخولها إلى الرتب . وبمراكبك الحملات التبن
والخطب . أهل تشبهين سوى الريف الذى لم يسكنه من مصر لطيف .
من سكن فيك تصدع من الصياح . المرتفع من أهلك فى المساء والصباح .
فقال الجزيرة : الكلام ربيع القلوب . والخمدة من أعظم العيوب
بنوس أهلى تتنبه سكانى للصلاة . ويشغل به عن الفكرة من ملّة حبيب
فقيل أنه سلاه . فانا للناظر بستان . وللعاشق سلوان .

فقال الجسر : أنا أجدد العهد بين الحبايب . ولم أترك خلا لخله
مجانب . وأزيل ضغائن القلوب . ومقاصفى تصلح للجمع بين المحب
والمحوب . وأنا من بين القصرين (٢) قريب . وكم لى فيهم من حبيب .

(١) موردة الاحلاف أى إنها تنبت بها حشائش الخلفا، وقد كان على النيل بمصر القديمة فى العصر
المملوكى منطقة تسمى موردة الخلفا تقع الآن ما بين كوبرى الملك الصالح إلى ميدان فم الخليج .

(٢) بين القصرين هو الخط المعروف فى قصة القاهرة نسبة إلى القصرين العاطميين المتواجهين القصر
الشرقى الكبير والقصر العربى الصغير وكان عبارة عن براح من الأرض يسع لعشرة آلاف من العسكر ما
بين فارس وراجل . وبعد انقراض الدولة الفاطمية سى فى هذا الفراغ وصار هذا الخط من أعمر وأرحم
حطط القاهرة بما يصم من آثار وحاصة الآثار المملوكية الشهيرة مثل مجموعة فلاوود ومدرسة ايه
النصر محمد ، ومدرسة برفوق وغيرها

فقال الجزيرة : يا كثير الحيلة . وهلى أنا بعيدة من باب زويلة (١)
فاسدد خوخة العياقة (٢) ولا تدخل معى فى هذا الباب فمالك به طاقة
فقال الجسر : وهل بذا الباب افتخار . وقد قال فيه الناظم حين شاهد
ما كان لأمر سوار (٣)

بسباب زويلة شاهدت امرا يسخيل انه لسنار بابا
كلاليبا (٤) به سحبت عصاة تذيبهم الزبانية عذابا

فقال الجزيرة : دع الاستعارة يا عيار . وخذ فيما لا عليه غبار . أتقاوم
بخوخة وياسمينة . ماء سدى الذى صيرك من الشرب منه طينه

فقال الجسر : كم تفتخرى بماء السد اللطيف . أهل أنت غير جزيرة فى
التصحيف . ولولا خوختى المقصودة . وياسمينتى المنضودة . ونرجس
عيون غزلانى . وورد خدود أغصانى . وتفاح خدود أقمارى ورماني نهود
أبكارى ما انجرع ماء السيد الغفار ولا اشتهى شراب العقار .

(١) باب زويلة أشهر باب من أبواب القاهرة وهو يقع على السور الحوى لها (انظر رقم ٩٩) وتاريخ استائه
الحالى يعود إلى سنة ١٠٩٢هـ / ١٨٨٥م على يد بدر الحمالي وعلى ندىته العلويتين سى المؤيد شيخ
محدثين لمسحده .

(٢) خوخة العياقة عبارة عن فتحة فى سور القاهرة العربى تقبها العياق (اللبصص) ليغبروا فيها على الناس
فى الخليج والبر الغربى له .

(٣) سوار كان حاكما على امانة دلعادر وهى إحدى الإمارات التركمانية على حدود الدولة المملوكية
بالشام ، وأعلن العصيان على السلطان قايتباى بايعاز من الدولة العثمانية ، وقامت عدة معارك بينه وبين
المماليك إلى أن استطاع الأمير يتسك الدوادار أن ينتصر عليه سنة ٨٧٦هـ واقتاده أسيراً إلى مصر حيث
انتهى الأمر بشقه على باب زويلة فى ربيع الأول سنة ٨٧٧هـ . ابن إياس ، ندائع الرهور ح ٣ ص ٧٧ -
٧٨ .

(٤) الكلاليب هى حديدة معوجة الرأس يعلق بها الشيء (مثل الهلب) .

فقال الجزيرة : أمرتك بترك الاستعارات . فأغربت من معجمها اغرب
العبارات . ويلك لولم اتميز عليك إلا بانفراد القلاع . وهذا قد انعقد عليه
الاجماع . وسيظهر لى قرط وكتان . يروى بما استعرتة لحاجبك من شقائق
النعمان .

فقال الجسر: أتدكرين ربيع حاجبى المحفوف بالبنفسج والاقحوان .
ومع كتانك المهان . وفى الأمثال شتان ما بين بنفسج وكتان . سخجلين
أعظم خجلة . فلا يساوى كتانك معه بقلة .

فقال الجزيرة : كفاك ان تغد وتروح . ولم ترقلما أمامك يلوح .

فقال الجسر: ان افتخرت بقلاعك فانا لقلعك بالمرصاد . مع ان لى النظر
على قلاع تزيد بذات العماد . ولو لم تكن القلاع حصينة وما سكنتها
الملوك . ولا وقف بابواب سكانها مملوك . ولو لم اكن خاص الخواص
الفاخر . لما كنت تحت نظر انسان غير الزمان الناظر . فجل الفرع المثمر .
والغصن الذى أصله مزهر . وفى ذلك يقول :

سلطان من مسك اليراع ومن سما باسم الحليفة أفضل العمريين
وماسن نجل مزهر كسميه لم لا وذلك واحد العمريين

أجرى الله اقلامهما بالسعد الممدود . واوقف على امتداحهما ألسنة
شعراء عصرهما المسعود .

فلما سمع الملك الأعظم . ذو السلطان الأشهم . الملك فى عساكر
الأمواج النواصى . والمؤمر دون جميع الانهار على الطائع منهم والعاصى .
والساحب من تياره نمشه ملكه ومن تخشى سطوة فتكه . المالك الملك

القدير. المسمى بالبحر الكبير ادام الله أيامه الزاهرة. وجعل دواليبه (١) على الأرض المجذبة هي الدائرة. ما دار بين ذلك الخصمين التسلسل في الأقوال. وما ابدياه من هذه المحاججة في التفصيل والإجمال. ورأى كل منهما أن له الفضل بأدلة قاطعة. والقوة الزائدة في الرد على خصمه والمدافعة. . وما جاء أحد منهما إلا بدليل وبرهان. وإنهما من المفترجات النبيلة هما الاعيان. أفاض عليهما مما أنعم الله عليه. وعمرها مما سيق من فضل الله إليه وناداهما بلطف: لكل منكما تفضيل. ومن قصد منكما كان لبيت البسط تكميل. وانتما بعدى أعظم مفترجات هذا الإقليم. وله بكما كما لكما به الفخر العميم. فأقلعا عن هذه المساوىء المدثورة. فكل منكما له محاسن مشهورة فتصالحها والحلاوة عندي. وسأجعل لكما الأمر على جميع المفترجات بعدى.

ثم اخلع عليهما من ملبوسه النهارى خلعا ترى الناظر العجب. وقد رقمته الشمس المنيرة بالذهب. وأمر كاتبه النسيم ان يكتب منهما على طرس الماء تقليدا يذهب الشعاع. وارسل سعاة الأمواج للمفترجات تبشر من ساع وداع. فدقت كوسات الأنهر حين زمر الهوى فرحا. وسحبت تلك السعادة أذيال عزها مرحا ورقصت على الماء كلل جارية. ونشرت السماء عليهم اللؤلؤ من سارية. ودام الفرح والسرور. واسفرت في النهار والليل الشمس والبدور. وذلك في عام تسع وسبعين وثمانمائة (٢) تحسن من كل لفظة مطلعها وختامها. ما غاص شاعر في بحر البلاغة فخار الدرر. ونظم عقودها في سلك الأدب ونثر.

(١) دواليبه : سواقبه

(٢) (وثمانمائة) لم تكتب بالصر، ولكنى تعرفت عليها مما ورد في هذه الماطرة من معلومات تؤكد هذا التاريخ وخاصة ذكر قصر العيني الذي لم يبس الا سنة ٨٧١هـ / ١٤٦٦م. وكذلك واقعة سوار التي حدثت سنة ٨٧٧هـ / ١٤٧٢م.

منها تمار البديع والمعنى
بكرًا تجلت بديعة حسنا
رقت ومن جواهر اعدت اسنى
كما بدت غضة ومأمنا
من جور دهري وحظى الأذى
محمدا الشكور قد اثنا
أرض بماء وانبتت غصنا

يا من حنا سمعه وناظره
تلقيها بالقبول تحفظ بها
لا تبتعدوا بتديري دررا
صنفتها والشباب زهرته
مع أن هذا بفكرة خمدت
والحمد لله والصلوة على
والآل والصحب كلما سقيت

هذا ما انتهى إليه الغوص على الدرّة المنيرة في مناظرة الجسر والجزيرة.
وذلك مع اشتغال البال . والحمد لله على كل حال . وصلى الله على
سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما كثيرا دائما أبدا إلى يوم
الدين والحمد لله رب العالمين .

المفاخرة الثالثة
مفاخرة قناطر الوز والنراوية الحمراء

أولاً : دراسة تاريخية لقناطر الوز والزاوية الحمراء

لكى نتكلم على قناطر الأوز نذكر نبذة مختصرة عن الخليج (١) الذى كانت هذه القناطر معقودة عليه، ونقول ان الخليج عرف فى صدر الإسلام باسم خليج مصر وخليج الفسطاط وخليج أمير المؤمنين نسبة إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه، وقد اطلق عليه فى العصر الفاطمى اسم خليج القاهرة وعرف أيضا باسم خليج اللؤلؤة نسبة إلى منظره اللؤلؤة التى كانت على الشاطئ الشرقى له ويمثل موقعها الآن الأرض المقام عليها مدرسة الفرير بالخرنفش، وظل اسم خليج القاهرة مستعملا فى العصر الأيوبي، وفى العصر المملوكى عرف باسم الخليج الحاكمى وعرف أيضا باسم الخليج الكبير وباسم الخليج فقط .

ويعتبر الخليج أقدم مجرى مائى محفور بواسطة الإنسان فى مصر وكان يعرف باسم قناة سيزوستريس فى عهد سنوسرت الثالث، وقد حفره فى العصر الإسلامى عمرو بن العاص والى مصر من قبل الخليفة عمر بن الخطاب فى سنة ٢٣هـ / ٦٤٤م، ومسار الخليج يمثله الآن شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى) بحدود مدينة القاهرة ثم يسير فى وادى

(١) عن الخليج بالتفصيل انظر:

محمد الششتاوى ، مشروعات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى ص ٢٦٣ - ٢٩٦ .

الطميلات حيث الخصوص وسرياقوس والخانكة فى محافظة القليوبية ثم أبو زعبل والعباسة بالشرقية ثم إلى الإسماعيلة حيث يمر ببخيرة التمساح والبحيرات المرة حتى ينتهى إلى خليج السويس عند مدينة السويس . ويبلغ طول الخليج بحدود مدينة القاهرة الكبرى ٤٦ كم وعرضه المتوسط من ١٠ إلى ١٥ مترا، وقد ردم الخليج بالقاهرة فى سنة ١٨٩٨م وحل محله شارع الخليج المصرى الذى تغير اسمه إلى شارع بورسعيد بعد حرب ١٩٥٦م .

وكان يبلغ عدد القناطر على الخليج فى حدود مدينة القاهرة ١٤ قنطرة هى :

- ١ - قنطرة السد .
 - ٢ - قناطر السباع
 - ٣ - قنطرة عمر شاه
 - ٤ - قنطرة طفر دمر
 - ٥ - قنطرة اقسنقر
 - ٦ - قنطرة باب الخرق
 - ٧ - قنطرة الأمير حسين
 - ٨ - قنطرة الموسكى
 - ٩ - قنطرة باب القنطرة
 - ١٠ - قنطرة باب الشعرية (الخروبى)
 - ١١ - القنطرة الجديدة
 - ١٢ - قناطر الأوز
 - ١٣ - قناطر نى وائل
 - ١٤ - قنطرة الأميرية .
- وعن قنطرة الأوز نقول إنها كانت تصل بين الحسينية شرقا إلى أرض البعل غربا .

ويمثل موقعها الآن نقطة على شارع بورسعيد (شارع الخليج المصرى سابقا) تجاه حارة قنطرة الظاهر بالقاهرة (١) .

(١) محمد رمزى، تعليقه على كتاب النجوم الزاهرة لاسم تبرى بردى ج ٩ ص ٨٣ .

وقد أنشأ هذه القناطر الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧٢٥هـ / ١٣٢٥م على يد الأمير قدادار والى القاهرة آنذاك ، إلى جانب عدة قناطر أخرى مثل قنطرة الأميرية وقنطرة الأمير قدادار وذلك بمناسبة حفر الخليج الناصرى واتصاله بالخليج الكبير .

وقال المقريزى عن القناطر وما حولها أيامه « وأدركت هناك أملاكاً مطلة على الخليج بعد سنة ثمانين وسبعمائة، وهذه القناطر من أحسن متنزهات أهل القاهرة أيام الخليج لما يصير فيه من الماء ولما على حافته الشرقية من البساتين الأنيقة، إلا إنها الآن خربت ، وتجاه هذه القنطرة منظر البعل التى تقدم ذكرها عند ذكر مناظر الخلفاء وبقيت آثارها إلى الآن أدركناها يعطن فيها الكتان وبها عرفت الأرض التى هناك فسميت إلى الآن بأرض البعل ، وكان هناك صف من شجر السنط قد امتد من تجاه قناطر الأوز إلى منظر البعل وصار فاصلاً بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة للتنزه فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم ملا يقع عليه حصر وبيع هناك مآكل كثيرة وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة عنها يومئذ نحو مائتين وخمسين مثقالاً من الذهب على أنه لا يباع فيها لاسمك إلا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك، ولم يزل هذا السنط إلى نحو سنة تسعين وسبعمائة فقطع وإلى اليوم تجتمع الناس هناك ولكن شتان بين ما أدركنا وبين ما هو الآن وقيل لها قناطر الأوز» (١) .

(١) الخطط ج ٢ ص ١٤٨ .

وفى قناطر الأوز وبركة البشنين بجوارها قال الأمير سيف الدين آلوز

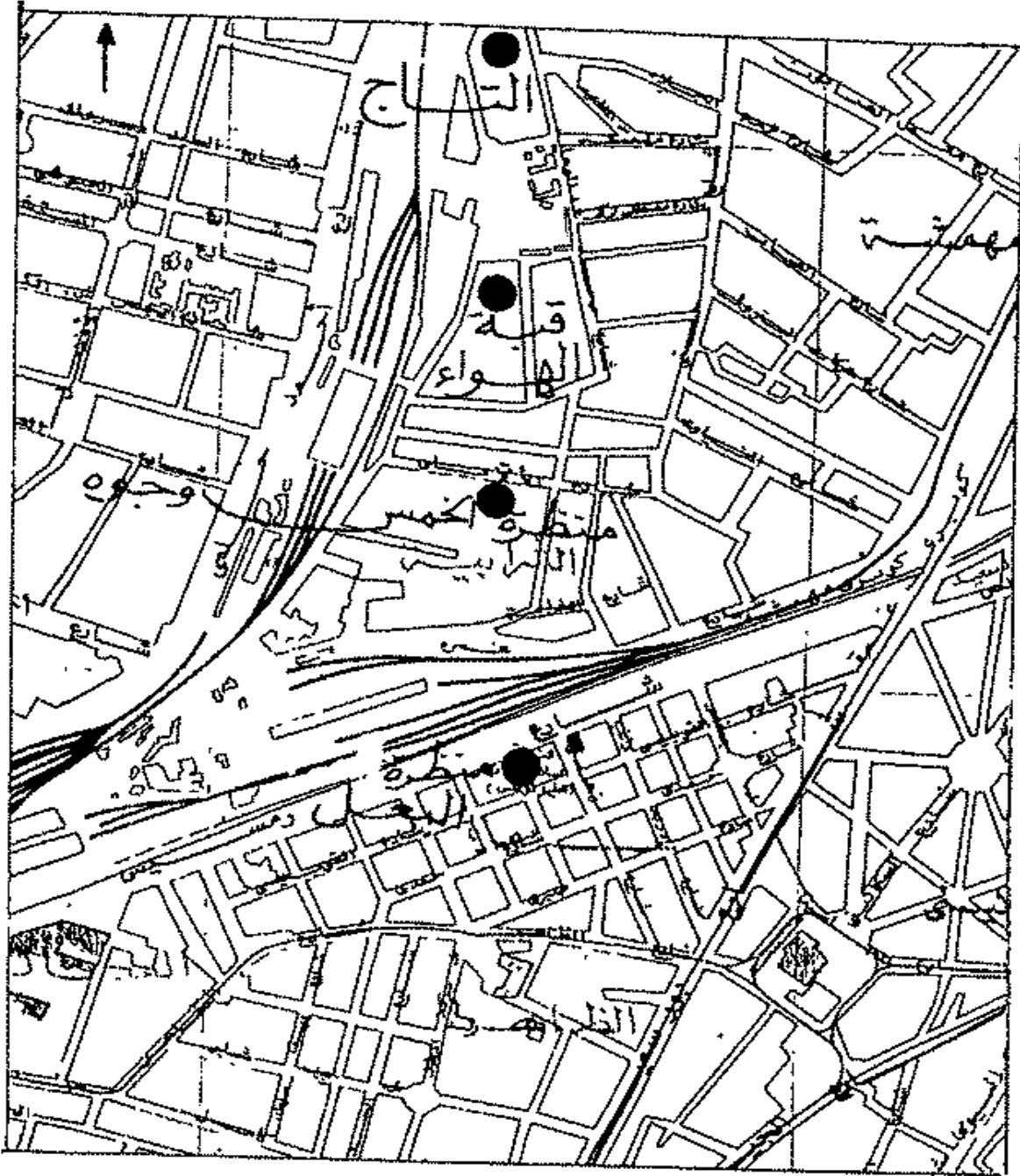
سنة ٥٨٤٨ هـ :

يعبر النديم لها الخمرة كاسه

فى مصر يعزى للأوز قناطر

فى الماء لف ثيابه فى راسه

وحكى بها البشنين شخصا خائضا



(شكل ٧) موقع منطـرة الخمس وجوه بين قبة الهواء ومنطـرة البعل بالقاهرة

وقال آخر في المعنى :

قناطر السوز لها رونق قد يأذن النيل بتشريفه
يا حبذا سطك فيها على عرائس النيل في تصحيفه (١)

وعن أرض البعل (٢) والتاج التي كان الناس يعبرون من على قناطر الأوز إليها نقول أن أرض البعل كانت في العصر الفاطمي بستانا يعرف بالبعل وفيه منظره البعل وقد أنشأهما الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالي وقد جعل على هذا البستان سورا (٣).

وأرض التاج كانت في العصر الفاطمي بستانا وفيه منظره التاج بناها الأفضل أيضا، وكان بستان التاج مجاوراً لبستان البعل ويجاورهما بستان الخمس وجوه، وكانت تلك البساتين والمناظر من أجل متنزهات الخلفاء والوزراء الفاطميين (٤).

وأرض البعل تقع في جانب الخليج الغربي بحرى أرض الطبالة مقابل قناطر الأوز، وقد ذكر «المقریزی» أنها في أيامه كانت مزرعة ويخرج الناس للتنزه هناك أيام الربيع والنيل، وقد خربت المنظره آنذاك وبقي منها

(١) السيوطي، رسالة في ذكر ما قالت الشعراء في وصف مصر ص ٨.

(٢) البعل في اللغة هو الزرع يشرب بهروقه فيستعنى عن السقى، والبعل الأرض المرتفعة التي لا يصبها المطر الا مرة واحدة في السنة، وقيل البعل كل شجر أو ررع لا يسقى، وقيل البعل ما سقته السماء وقد استبعل الموضع، والبعل من النخل ما شرب بهروقه من غير سقى ولا ماء، وقيل هو ما اكتفى بماء السماء، والبعل ما اعطى من الإثارة على سقى النخل. انظر مادة بعل في المعجم الوسيط، المقریزی، الحطط ح ٢ ص ١٢٩.

(٣) المقریزی، الحطط ح ١ ص ٤٨٠ - ٤٨١، ح ٢ ص ١٢٩.

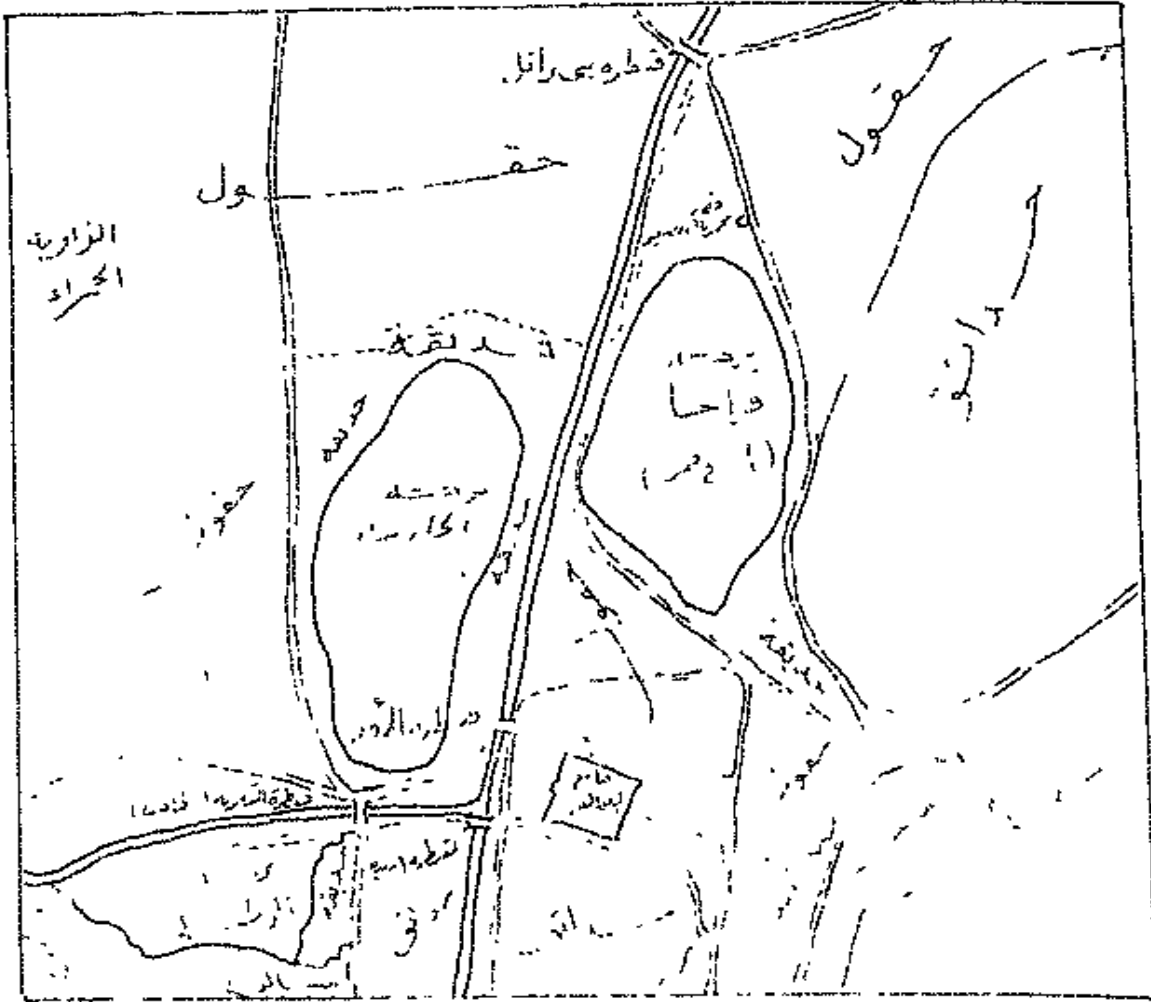
(٤) نفسه.

آثار أدركها المقرئى يعطن بها الكتان تدل على عظيمها وجلالتها فى حال عمارتها (١).

أما أرض التاج أيام المقرئى فقد زالت عنها الأشجار . واستقرت فى أراضى منية السيرج الخراجية، وفى أيام النيل ينبت فيها نبات يعرف بالبشنين له ساعد طويل وزهره يشبه اللينوفر وإذا أشرقت الشمس انفتح فصار منظرا أنيقا وإذا غربت الشمس إنضم (٢) . وربما هو الذى تعرفه اليوم باسم عباد الشمس .

(١) نفسه .

(٢) المقرئى ، المخطوط ج ١ ص ٤٨١ .



(شكل ٨) موقع قناطر الوز وبركة الحازن دار والزاوية الحمراء

بالقاهرة في خريطة الحملة الفرنسية

ويمثل أرض البعل الآن المنطقة السكنية في غمرة والشرابية المحدودة من الشرق بشارع الخليج المصرى (بشارع بورسعيد) ومن الشمال بشارع الآلايلى وما فى امتداده ومن الغرب بخط السكة الحديد الموصلة إلى محطة مصر ومن الجنوب بشارع الظاهر وما فى امتداده .

وأرض التاج تقع شمال المنطقة السابقة ويمثلها الآن المنطقة السكنية المعروفة بمهمشة، وحدها الشرقى شارع الخليج المصرى أيضا والحد الشمالى بشارع معمل الصابون ومن الغرب السكة الحديد ومن الجنوب بشارع الآلايلى وما فى امتداده (شكل) .

مما يجدر ذكره هنا أن نقول أنه كان يوجد بركتان على جانبى الخليج عند قناطر الأوز الواقعة شرقى الخليج هى البركة التى عرفت فى العصر المملوكى باسم بركة قراجا ثم عرفت فى العصر العثمانى باسم بركة الشيخ قمر، والواقعة غربى الخليج مواجهة تماما لقناطر الأوز لم يذكرها المقرزى فى حصره للبرك بالرغم من أن مساحتها أكبر قليلا من بركة قراجا وربما اغفلها المقرزى لخلوها من حولها من البناء .

وفى دراستى لبرك القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى فى رسالتى متنزهات القاهرة فى العصرين المملوكى والعثمانى تكلمت عن تلك البركة الغربية فى حاشية عند دراستى لبركة قراجا (بركة الشيخ قمر) وذكرت ان قد وقعت فى خرائط الحملة الفرنسية باسم بركة الشيخ قمر هى والمواجهة لها أيضا .

ولكى من حسن حظنا اننا تعرفنا على اسم هذه البركة فى العصر المملوكى من خلال تلك المناظرة وهو بركة الخازندار .

ويمثل موقع هذه البركة الآن جزء من حى غمرة وجزء من حى الشرايبة
ينحصر بين شارع الظاهر جنوبا، وشارع المنياوى والشارع الآلايلى
شمالا .

الزاوية الحمراء بنيت فى بلد عرف فى العصر المملوكى باسم كوم
الريش وذكر «المقريزى» أن «كوم الريش اسم لبلد فيما بين أرض البعل
ومنية السيرج، وكان النيل يمر بغربها بعد مروره بغربى أرض البعل»^(١) .

وكان كوم الريش من أجل منتزهات القاهرة ورغب الناس فى سكنها
للتنزه بها^(٢)، وقبل المحن التى تعرضت لها القاهرة ابتداءً من سنة ٨٠٦ هـ
كان يسكن بكوم الريش عدة امراء دائما وكان جملة من سكن فيها دائما
نحو الثمانمائة من الجند السلطاني^(٣) .

وعن عمارتها قال المقريزى « وأنا أدركت بها سوقا عامرا بالمعاش
بأنواعها من المأكول ولا أعرف اليوم بالقاهرة مثله فى كثرة المأكول وأدركت
بها حماما وجامعين تقام بهما الجمعة وموقف مكارية ومنارة لا يقدر
الواصف أن يعبر عن حسنها لما اشتملت عليه من كل معنى رائق
بهيج»^(٤) .

وعما آلت إليه فى زمنه من خراب قال « وما برحت على ذلك إلى أن

(١) الخطط ج ٢ ص ١٣٠ .

« وقال المقريزى عن النيل وأثره على كوم الريش .. وأدركت آثار الجروف باقية من عربى البعل
وغربى كوم الريش إلى أطراف المنية (سنة السيرج) حتى تغيرت الأحوال من بعد سنة ست وثمانمائة
ففاض ماء النيل فى أيام الزيادة ونزل فى الدرب الذى كان يسلك فيه من أرض الطيالة إلى المنية
فانقطع هذا الدرب وترك الناس سلوكه » .

(٢) المقريزى ، الخطط ج ٢ ص ١٣٠ . (٣) نفسه .

(٤) نفسه .

حدثت المحن من سنة ست وثمانمائة فطرقها أنواع الرزايا حتى صارت بلاقع وجهلت طرقها وتغيرت معاهدها ونزل بها من الوحشة ما أبكاني وأنشدت في رؤيتها عند مشاهدتها خرابا:

قفرا كأنك لم تكن تلهو بها في نعمة وأوانس أتراب (١)

« وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد » (٢).

ولكن الأزمات التي بدأت سنة ٨٠٦ هـ لم تدم ، ففي أيام المؤيد شيخ بدأ التعمير يعود للقاهرة، وعادت كوم الريش إلى ما كانت عليه سابقا أثناء سلطنة الملك الأشرف قايتباي، فقد أنشأ بها زاوية تجاه جامع قيذان دهنت حيطانها باللون الأحمر فعرفت بالزاوية الحمراء وكان ذلك سنة ٨٩٠ هـ وقد عرفت كوم الريش منذ ذلك الوقت باسم الزاوية الحمراء (٣)، وكان بناء الزاوية على يد أبي البقاء بن الجيعان (٤).

وذكر ابن إياس إنه في جمادى الأولى سنة ٨٩٦ هـ « انتهت عمارة أبو البقاء بن الجيعان من تجديد ما عمره في الزاوية الحمراء التي عند قناطر

(١) نفسه. (٢) سورة هود الآية ١٠٢.

(٣) السخاوي، الضوء اللامع ج ٦ ص ٢٠٩، محمد رمزي، القاموس الجغرافي ق ٢ ج ١ ص ١١، تعليقه على السجود الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٣.

(٤) ابن الجيعان هو أبو البقاء محمد بن يحيى بن شاعر، كان رئيسا حشما فاضلا عارفا بأحوال المملكة وكان مقربا عند الأشرف قايتباي ورفي في أيامه وانتهت إليه الرياسة وفاق على من تقدمه من أقاربه وكان أدوبا حلو اللسان سيوسا وله اشتغال بالعلم وكان من نوابغ بني الجيعان، وكان له بر معروف، وقد قتله بعض المماليك في ذي القعدة سنة ٩٠٢ هـ عن عمر يناهز الستين عاما وولى السلطان مكانه إياه صلاح الدين وقرره في استيلاء الجيش مضافا لما بيده من كتابة السرر ابن إياس، بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٦٣.

الأوز وصارت من جملة مفترجات القاهرة، وفي ذلك يقول بعض الشعراء:

عجبت لجامع قد زاد حسنا وابدع فى التزخرف والبناء
به انهار تجرى فى جنان وقصر شامق لأبى البقاء

وصنع هناك جامعا بخطبة وجاء فى أحسن المباني « (١) ».

ونفهم من كلام ابن إياس ان ابن الجيعان قد حول الزاوية إلى جامع بخطبة ويرسم لنا ابن إياس صورة للمنطقة آنذاك بقوله فى ترجمته لابن الجيعان انه هو « الذى انشأ عمارة الزاوية الحمراء وجعل بها خطبة والحوض والسبيل، وانشأ هناك القصور والمناظر والغيط الحافل وصار ذلك المكان من جملة مفترجات القاهرة وتسعى إليه الناس فى زمن النيل بسبب الفرجة هناك وصار عوضا عن التاج والسبعة وجوه التى كانت من المفترجات القديمة » (٢).

وظلت أعمال ابن الجيعان قائمة فى العصر العثمانى وكانت الزاوية معروفة باسمه وقد آل القصر الذى انشأه والجسنة الملحقة به وكذلك الأراضى والغيط الذى كان جاريا فى أوقافه إلى الأمير عثمان كتحدا القاذوغللى فى محرم سنة ١١٤٥ هـ (٣).

(١) بدائع الزهور ج ٣ ص ٢٨٠ - ٢٨١.

(٢) ابن إياس، بدائع الزهور ج ٣ ص ٣٦٣.

(٣) كتاب وقف عثمان كتحدا القاردو غلى رقم ٢٢١٥ أوقاف ص ١٥٢، ١٥٣، ١٥٦.

ثانياً : التحقيق والتقييم

(أ) التحقيق :

تقع هذه المفاخرة ضمن المجموعة التي جمعها يوحنا الفرنسيس التي تحمل رقم ١٥٨٦ أدب في مخطوطات دار الكتب المصرية بعنوان مفاخرة الأزهار والنباتات الناضرات ومجاهرة الأطياف والجمادات الناطقات .

وتقع في ٢٠ صفحة من ص ٩٣ : ١١٢ من المجموعة ، وهذه المجموعة نسبت خطأ إلى المقدسي (٧٦٤ - ٨٢٠ هـ) وقد تبين لي ذلك الخطأ من خلال دراستي لها ومنها هذه المفاخرة وقد أثبت تأليف بعض هذه المفاخرات بما يزيد عن خمسين سنة بعد وفاة المقدسي .

ومؤلف مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء غير معروف على التحديد ولكننا نستطيع أن نحدد تاريخ تأليفها فيما بين سنتي ٨٩٦ هـ حتى ٩٠١ هـ من خلال المعلومات التي تحويها من ذكر لجامع السلطان قايتباي بجزيرة بالروضة الذي كمل بناؤه سنة ٨٩٦ هـ ، وفي نفس الوقت ذكر للسلطان وهو قايتباي الذي توفي سنة ٩٠١ هـ .

وهذه المفاخرة مكتوبة باللغة العامية وفيها كثير من الألفاظ الدارجة وأسلوبها سهل ، وعباراتها موزونة الأيقاع .

التقييم :

ترجع أهمية هذه المفاخرة إلى احتوائها على معلومات هامة تفيد في دراسة التخطيط العمرانى لمدينة القاهرة وكذلك دراسة المجتمع المصرى إبان العصر المملوكى وقت تأليفها .

وأهم تلك المعلومات إننا تعرفنا من خلالها على اسم بركة كبيرة تسمى بركة الخازندار كانت على الشاطئ الغربى للخليج الكبير أمام قناطر الوز مواجهة لبركة الشيخ قمر وكانت متنزها جليلا فى العصر المملوكى ولم يذكر عنها المؤرخ المحقق المقرئ شئنا بالرغم من أهميتها .

كذلك تلقى المفاخرة الضوء على الزاوية الحمراء التى بناها السلطان قايتباى وجدها أبو البقاء بن الجيعان، وقد أصبحت متنزها جديدا للقاهرة جذب الناس إليه لموقعه الفريد بين بساتين جميلة ومزارات دينية هامة .

وحتت المفاخرة أسماء المتنزهات المنافسة المعاصرة لها وأماكن أخرى هامة فى أواخر العصر المملوكى مثل الأزبكية والجزيرة الوسطى وبولاق وجزيرة الروضة وقنطرة الحاجب وقنطرة الليمون ومنية السيرج وغيرها .

وهى تمدنا بصورة صادقة عن مظاهر التنزه والتفرج والترويح عن النفس فى تلك الأماكن بما يصاحبها من إقامة موائد بها وذكر لأنواع الأطعمة المصاحبة لها والتى لا يزال الناس فى وقتنا هذا يفعلوه للآن .

ثالثا النص

مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء

بسم الله الرحمن الرحيم

حكى صاحب البهجة الحلوانية قال : تفاخرت قناطر الوز مع الزاوية الحمراء ذات الأسرار الربانية وقال من بدأ بالكلام . قناطر الوز والسلام . لأنها شككت ما بها من الغيرة والنار . من الزاوية الحمراء إلى بركة الخزندار (١) .

فقاتلت لها . أنا لا شك من صفك . وحاميتك من قدامك ومن خلفك . والفضل للسابق ، وأنا ظهرك . إذا حقت الحقائق . قال : فعندها تقنطرت أحسن ما كانت . وأسفرت عن معاني حسننها وبانت . وقالت : أنا قناطر الوز . وصاحبة الجمال والعز . وكم لى بين الأنام عشاق . يجبيثوا اللى من الجزيرة وبولاق . وكم خلق يأتونى فى الراكب . ومن كل ما شى وراكب . واسمى على كل القناطر ومسمى . والقناطر كلها

(١) بركة الخزندار بركة تعود للعصر المملوكى كانت على الجانب الغربى للملحاح مواجئة لقناطر الاور يمثل موقعها الآن جزء من حى غمرة وجزء من حى الشراية ينحصر بين شارع الطاهر جنوبا وشارع المتياوى وشارع الألايلى شمالا .

من تحت حكمى . وأيام النيل هى أيام المراكب . فكم فيها يُرى تحتى
مراكب . وكم عندى من واقفين على الرؤوس . والى تشتاق النفوس .
وأنا فريدة الدهر وحيدة الزمان . وأصيلة فى هذا المكان . وذا المكان
مشرق بحسنى وضاح . وقد انتشر ذكرى فى سائر البلاد وراح . وكم
ظهر على من أزيكية وجزيرة (١) . وما قاسيت قط غيرة . لأن الناس
كانوا يسيبوهم ويجونى . ولا قط كانوا يهجرونى وكم حولى من زوايا
للبلقى وللكردى . والناس يسيبوهم ويجوا إلى عندى . ويجلسوا تحتى
يونسونى . ولا يبقى يهون عليهم يفارقونى . حتى قضى علىّ علام
القدرة بك ياذا الزاوية الحمراء وايش اقدر اتكلم وايش اقدر أقول . ما
كانكى عملتى إلا محبة وقبول . وعقد لسان مع جلب . وقد أتوكى
أهل الشام مع حلب . فقعدتى تجاهى . وكسرتى عزى وجاهى .
وأخذتى أهلى وأولادى . وملكتى أرضى وبلادى . وتركتينى بين الأنام
نقمة . ولاخلىتى عندى ولا لقمة . فكم كان تحتى بطيخ عبيدى .
أصحابه فلمانى وعبيدى يكنسوا تحتى ويفرشوا . ويقعدوا يتحدثوا
ويلقشوا . وكان عندى جين حالوم مع البان . وكان تحتى دكان الجبان ،
وأشراس بصل مع كرات ، وأم الخلول مزققة على البحرات ، وباذنجان

(١) الاربيكية هى بركة الربكية التى كانت تعرف من قبل ببركة بطن البقرة ثم أعاد حفرها والاعتناء بها
واقامة العمائر حولها الامير ازبك من ططبخ الاتابكى فى الفترة من دى الحجة سنة ٨٨٠ هـ /
١٤٧٦ م حتى جمادى الاولى سنة ٨٨٩ هـ / ١٤٨٤ م وكانت البركة متزها عطيا بقية العصر
الملوكى وطول العصر العثمانى ، وردمت البركة ايام الحديدى اسماعيل وتحولت الى الحديقة
الموجودة بقاياها للآن .

أما الجزيرة المذكورة فهى الجزيرة الوسطى التى ظهرت للوجود بعد سنة ٧٠٠ هـ / ١٣٠٠ وعمرت
بعد ذلك عمارة عظيمة ايام الناصر محمد بن كلاوون .

مقلبي كل واحدة مثل الخروف . والناس مصفوفة حولي صفوف ، وخبز ماوى مع رومى ، وأنا بين جندى وقومى ، وكم كان لى من المقدار ، وكم كان حولي من مسكن ودار . فقلبتى أنت الدست (١) . على وأخذتى الكل ورحتى إلى فوق شوية . وبنيت عندك القصور والأملاك ، وأخذتى من عندى الجميع حتى دكان السماك (٢) . وكم كان له فى صحبتى أزمنة معتدة ، فأخذتیه وتركتى الدكان منهدة ، وأسكنتيه بدكان عامرة ، ما بنى مثلها فى مصر ولا فى القاهرة ، وكم إلتم عليك سوقة ، واجتمع فيك أشكال متفرقة ، وكم فيك أجبان مقلية وقشطة وعسولات نحلية وكم لحم على العويدات ، وكم نسا وكم وليدات ، وكم بطيخ عبيدى وكم جبن شريحه وكم صغيرة وكم مليحة . وكم جين حالوم وكم مآكل . وما خليتى عندى شىء يتأكل . وكم فيك من الحلالات صوانى ، وذا يعيظ تعا يا حلوانى ، وجمعتى فيك الناس على بعضها بعض ، وقد كانوا يقفوا تحتى ويجلسوا على الأرض ، وأخذتى جنودى وأحلافى ، وقد كنت من حلمى أخليهم يركبوا ظهري واكتافى ،

(١) الدست فى اللغة صدر المجلس .

(٢) ذكر المقرئى فى الحفظ ج ٢ ص ١٤٨ فى كلامه عن قناطر الأوز : وهذه القناطر من أحسن منتزهات أهل القاهرة أيام الخليل لما يصير فيه من الماء ولما على حافظه الشرقية من البساتين الأنيقة وكان هناك صفا من شجر السمط قد امتد من قناطر الأور الى مظرة البعل وصار فاصلا بين مزرعتين يجلس الناس تحته فى يومى الأحد والجمعة للزهة فيكون هناك من أصناف الناس رجالهم ونسائهم مالا يقع عليه حصر ، ويباع هناك مآكل كثيرة ، وكان هناك حانوت من طين تجاه القنطرة يباع فيها السمك أدركتها وقد استؤجرت بخمسة آلاف درهم فى السنة عنها يومئذ نحو مائتين وخمسون مثقالا من الذهب على انه لا يباع فيها السمك الا نحو ثلاثة أشهر أو دون ذلك

وروحى قط ما منعتهم حتى انهم حرقوني وما كلمتهم . وكم جاءتنى
خلايق، معها صحون من مطابق مع مطابق . و عشن بهم كانت هنية ،
فلما أخذت بهم ورحتى ما هان على ، فان فراقهم على شديد، وقد كانوا
لا يفارقونى ولا نهار العيد ، وما اقدر اسكت اتفرقع ، واتمزق واتقطع ،
وما بقى شىء حولى سوى الكوم ، يا بنت البارحة واليوم ، وايش بقيتى
تعملى معى ، فاصغى لقولى حقيقا واسمعى ، قبل اكمن لك كمين ،
واقيم عليك العايظ يا مسلمين ، واطلب اخذ الثار ، وتجيني بركة
الخنزدار، وتخرج لى الفرسان ، من شقة جامع قيدان (١) . ويقع بيننا
الكلام، ولا نبقى صلح والسلام .

قال فعند ذلك أبدت الزاوية الحمرا ، عن رقيق خصرها ، وأسفرت عن
رفيع قصرها ، وقالت يا قناطر الوز اصبحتى عجوزة، وحسادة غيرانه
ومشواة عجوزة ومجنونة غيرانه مغبونة تقولى انك عزيزة فأين عزك ،
وأين دجاجك وأين وزك ، قناطر الوز اسمك فأين دجاجك وأين وزك،

(١) جامع قيدان ذكره المترى فى المخطوط ج ٢ ص ٣١٢ فقال : هذا الجامع حارج القاهرة على جانب
الخليج الشرقى ظاهر باب الفتوح مما يلى قناطر الاز تجاه ارض البعل كان مسجدا قديم البناء فجده
الطواشى بهاء الدين قراقوش الاسدى فى محرم سنة ٥٩٧ هـ وجدد حوض السبيل الذى فيه ثم ان
الامير مظفر الدين قيدان الرومى عمل به سيرا لإقامة الخطبة يوم الجمعة وكان عامرا بعمارة ما حوله ،
فلما حدث الغلاء فى سنة ٧٧٦ هـ أيام الملك الأشرف شعبان بن حسين خرب كثير من تلك
النواحى وبيعت انتقاضها وكانت الخرقه أيضا فصار ما بين القنطرة الجديدة المجاورة لسوق جامع
الظاهر وبين قناطر الاز المقابلة لارض البعل بيابا لا عامر فيه ولا ساكن فيه وخرب أيضا ما وراء
ذلك من شرقه إلى جامع نائب الكرك وتعطل هذا الجامع ولم يبق منه غير جدر آيلة الى العدم ثم
جدده مقدم بعض المماليك السلطانية فى حدود الثلاثين والثمانمائة ثم وسع فيه الشيخ أحمد بن
محمد الانصارى العقاد الشهير بالازرارى ومات فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٤٣ هـ .
* وموقع جامع قيدان الآن بشارع قطرة غمره عند تلاقية بشارع سعيد بخطط السكاكينى بالقاهرة .
انظر محمد رمزى ، تعليقة على النجوم الزاهرة ج ٩ ص ٢٠٣ .

ما اوحش غبارك وما أكثر عجاجك ، فشارة وقشارة وما رأينا لك قط
قنشارة ، شحاتة ودرويشة وما قتعتنا لك ريشة ، تفسرى علينا بالمطابك
بتاعك وما اطبق الا اضلاعك ، ولولا حسى ما عمرتى بعد ان كنتى
خربتى ، لا زالوا عليك حتى خرقوكى وخلوكى ، وراجوا حتى كأنهم لا
يعرفوكى ، وقد حصل لك بهجتى وأنسى ، وما ترضى ان تكونى تحت
حسى وأنا أجود عليكى بفضلى واحسانى ، واسمعك من طيب الحانى ،
وذكرى وقرآنى ، فكم عندى من صلاة وآذان ، وأذكار وقراءة قرآن ،
وفى ليالى البدر كم انشدونى قصايد ، وكم عملت أهل الكرم عندى
موايد ، وكم رفعوا لى قصص يطلبوا برى ورفدى ، وما رضيت بأى من
جاء يجرى لعندى ، وفى كم سأل سائل ، وأرسل فى طلبى رسائل وكم
فى سأل إنسان ، نظروه يمشى بجانب الخلجان ، وكل قلب لى مايل
والخليج على جنبو همايل (١) ، ماؤها لم يزل همال ، والبطلال ما يشبه
العمال ، وحولى كم عدة بقاع مزروعة ، يا عجوزة ومخلووعة ، وبنى
حولى رصيف ، كم عليه مليح وقصيف ، ينزل من على السلالم ، يغسل
يديه ويطلع على سالم ، وكم رئيس قصيف وكم جندى ، والناس
معذورة إذا جاءت إلى عندى ، يبصرونى كالعروسة المجلية ، يا عتيقة
وأزلية ، وليس حولى قمين ولا كوم ، وجليس لا يلمنى ولو أقام عندى
ألف يوم ، أما تنظرى لى حمرتى وبياضى (٢) ، وزهرى ورياضى ،
وساقتى وغيطانى ، وربيعى وغلمانى ، وزهرى وياسمينى ، وأقحوانى

(١) همايل المقصود بها سواقى ، وفى المعجم الوجيز (هملت) العين - هملا ، وهملاتا : فاصت
وسالت ، و - السماء ا دام مطرها مع سكون وضعف .

(٢) اشارة إلى دهان الزاوية باللونين الاحمر والابيض على التوالى وهو المعروف فى الوثائق باسم النظام
المشهر . وكانت معظم واجهات المباني الدينية على هذا الاسلوب .

ونسرينى ، ونخيلى وطلحى ، وعزى وفرحى ، ومنظرتى وكرمى ،
 ومسطبة عزى وحكمى ، واشجارى وثمارى ، وظلى ونهارى ، ورياستى
 وحرمتى ، وكم عبيد فى خدمتى ، والبدر بوابى وعتدى ، والمعروف
 مشدى وعبدى ، ودكتى المعلقة ، ونجومى المشرقة ، وبهجتى ونورى ،
 وضوى وتنورى ، وأنهارى المرحمة ، وبحرتى المعظمة ، ومنبرى
 ومحرابى ، وسقوفى وأبوابى وصاحبى وتقاؤه ، وخيره وثناؤه ، وصلاحه
 وشقيقه ، وعلمه وتحقيقه ، وخطيبى ولطفه ، ورقته وظرفه ، وإمامى
 وحمايله ، وصلاحه وعمائله ، وصهرىجى وسلسبيله ، وحوضى وسبيله ،
 وتشاهدى لبديع صفاتى ، وبدرتتى وختماتى ، وتسبيحى وسلامى على
 القوم الكرام ، فلهذا كنت مفضلة عليكى واعلا منزلة منكى ومن
 والديكى ، مجهولة الأصل لا يعلم من بناكى ، ولا من بهذا الاسم سماكى
 اسمى الزاوية الحمرا ، لما عندى من البياض والحمرة ، وانتى لا شك كذابة
 محتالة ونصابة ، قنطرة ومحدوبة ، مقهورة ومغلوبة ، فما تستحى وما
 تحاسبى نفسك ، وما تتكلمى مع من يكون من أبناء جنسك ، أين الثريا من
 الثرا ، أنا مدرسة وانتى قنطرة إلى ورا ، لو كنت عندى كما ذكرت بحسن
 أوصافك ، كنت راكبة ظهرك وفوق اكتافك ، ولو كان هذا الكلام لقنطرة
 الحاجب^(١) ، لقاتل الناس ما هو واجب أو لقنطرة الليمون^(٢) لساءت به

(١) قنطرة الحاجب كانت على الخليج الناصرى وكانت تصل بين أرض الطبالة إلى أرض العجل ومنية
 السرح وغيرها ، انشأها الأمير بكتمر الحاجب سنة ٧٢٥ هـ ويمثل موقعها الآن نقطة تقاطع شارع
 الظاهر مع شارع البكرية .

(٢) قنطرة الليمون كانت تسبق قنطرة الحاجب على الخليج الناصرى وكانت تعرف من قبل باسم قنطرة
 باب البحر وكان يتوصل إليها من باب البحر ويمر الناس من فوقها إلى بولاق وغيرها ، وهى مما انشأه
 الملك الناصر محمد بن قلاوون عند انتهاء حفر الخليج الناصرى فى سنة ٧٢٥ هـ ، ويمثل موقعها
 الآن نقطة بميدان رمسيس فى مواجهة شارع كلوت بك .

الظنون ، أو لقنطرة الدكة (١) ، لصكوكى الف صكة ، فما لكى بهذا الكلام الذى ما انت قياسه ، فقد ولىّ عصرك وناسه ، وأنا وضعونى للناس أجمعهم ، أقل من أربعين عندى ما تصح جمعتهم ، وأنا فرجة جديدة ، ما يسيبونى ويجوكى ولو نشيتهم بجريدة . فصفاك ما تشبه صفاتى ، ولا احد رأى لك وقتاً من أوقاتى ، أحبابى الذى انت متأسفة عليهم ، كم داسوكى تحت رجليهم ، وكم سكروا فيك من سكرة ، وكم كسروا فى مخك من جرة ، وبعدذا آخرقوكى يا معدله وجره يا مطية الحمير ، يا أم الف عفير ، يدوس عليك حتى اليهود والنصارى وزرارة ، وكم شخت عليك حمارة ، وفى الليل والنهار ، كم بال عليك حمار ، حتى الكلاب تطلع فوقك ، كل دامن نحسك وقلة ذوقك . ومن نزل من عليك يدحدر ، ويخاف لا يقع يتكسر ، وان كان تحتته حمار اخضر يخاف عليه لا يتقنطر ، ومن طلع فوقك ما يلتقى مكان ولا موضع يقعد فيه ، ولا مصطبة ولا شبك يجلس فيه ، ولا لك حظير ولا سطوح ، ومن قعد على جنبك يخاف لا ينزل يروح .

وكل من ضربت بهواكى إقتل ، يكون فوقك يبقى أسفل ، فإن كان

(١) قنطرة الدكة كانت على خليج الذكر وعرفت بقنطرة الدكة نسبة للدكة التى كانت عند القنطرة ويحلس عليها المترجون أيام الليل ، وكانت اصولها ترجع الى العصر القاطمى وقد عمرت هذه القنطرة مرة أخرى فى زمن الناصر محمد بن قلاوون على يد الأمير بدر الدين التركمانى فعرفت باسمه ، ثم اعاد تميمها الأمير ازبك عندما اعاد حفر الخليج وجعله يخرج من الخليج الناصرى ويصب فى بركة الأزبكية ، وقد احتفت القنطرة عند تطوير الأزبكية أيام الحدوى اسماعيل وكانت تقع عند التقاء شارع قنطرة الدكة مع شارع الجمهورية .

وقد قال المعمار فى قنطرة الدكة :

يا طالب الدكة نلت المي وفزت فيها بلوغ الوطر
قنطرة من فوقها دكة من تحتها تلقى خليج الذكر

يعرف يعوم عام ، وانت لا سكة ولا هندام ، وقد استراحت الناس من
سكرك وعربدتك ، ومخلعتك ومشودتك ، وانا فضلى بين الانام ظاهر ،
ولا يطلع عندي الا من يكون طاهر ، يصلى او يتركع ، ولا يتمخلع ولا
يتمشكح ولا يتبرطع ، ولا يدخل لى الا من يكون حافى ، وقلبه من
الكدر صافى ، وانا طاهرة أسفل وفوق ، وعندى الاحتمال والذوق ،
والناس ما كانوا يجوكى إلا وقت القطعة ، ولا يكلموا الأرياء مع سمعة ،
وموسمك كان فى آخر النيل شهر زمان وينداروا يهجروكى حتى يجى
النيل كمان ، والناس شبعوا منك لهم زمان نزقائين ، وما صدقوا رأونى
جاءونى فرحانين ، ولا سيما لما كنتى محدوبة ، وكانت سمتك مقلوبة
ومن لا عمره شق هذه الاماكن شقها من اجلى ، وكل ذا من حشمتى
وعقلى ، والخلق الذى كانوا يجوكى ما ييجو ربع الخلق الذى يجونى ،
فلا تحسدنى على رزقى فإنك الآن دونى ، وأرضى قط ما هى أرضك
ولا بلادك ، وانا من أصغر أصغر أولادك ، ولو إن لك ألف سنة تعيشى
فى الإسلام ، ما رأيتى ربع قيراط من هذه الأيام ، وما رأى لك أحد قط
سماط ممدود ، ولا شمعة ولا قنديل « رؤى موقود ، ولو لحق بك قيت
السماقى ، ما خالك أثر باقى ، ولا أحد » قدر يبات فيك ليلة ، وكل ذا
فجور منك وما فى الأمور حيلة .

فعند ذلك تهيأت للجواب بركة الخنزدار ، وأبدت لها غباراً قد ثار
وكشفت عن سنط عروقه كالأوتاد وعن صير كل صيرة تجى درهم غدار ،
ووجهها وجه غدار ، وعن ضفادع مذنبه ، وأشكال مقلبة ، وقد لعبت
أمواجها وثار عجاجها ، وانخضت خضة هايلة ، فى تلك الشمس
والقايلة ، وشكلها قد غدا مكرب ، وقد خطفوا عمامتى بها فى وقت
قبل المغرب ، ولا سلمت من القتل الإسلامه ، لولا إنى كنت أسبق

النعامة، وكم فى ذمتها من عمائم ، وكم لها من جرايم ، وقالت : قناطر
الوز جارتى ، وصاحبتى و بنت حارتى ، وتعودت بى وتعودت بها ، ومن
جاء صوبى جاء صوبها ، ونحن أصل هذا المكان، فلا تيجى تقلعى اسمنا
من الديوان ، فما أحد له على الغيرة جلد ، ولو كان حداكى الف بلد ،
والصلح يحصل بلادى بلادة ، ونحن تعرفك قبل ذى السعادة ، ونعرف
أصلك وخصمك من قبل ان تعمري و يظهر اسمك ، ومن قبل ان تعمل
فيك المبيضين والمبلطين ، وحيطتك كأنها قفاعة طين ، وإذا تمقل الإنسان
لكى بالنظر ، ما يرى فىك طوبة ولا حجر الا حيطتك كلها طينة ، وانت
فقيرة ومسكينة ، ونعرف جماميزك وجميزهم الباط ، والنيل قد احاط بك
احتياط ، وشكلك وهندامو ، وفقيرك واعلامو ، ورؤيتك تحزن القلوب ،
وكل سنة يخافوا على حيطتك لا تذوب ، وانتى مهدومة وعاوزة البنيان،
وما فىك يرى إنسان ، ولا يكون عندك إلا من يكون صياد أو غريب
ماهو من ذى البلاد ، وكل صياد يجيكى عليه هدمه ، وهو داير على
لقمة ، وتلك الجماميز عليها الغربان تنعق ، والبوم والحداى تزعق ،
فالإنسان بروحه ما يلحق، نسيتى صيادينك وهدمهم تعاتيرك وصدمةهم
لا يقدر احد يقعد فىك «نتفة» إلا تشوكة تلك الحلفة، والالبابك سلالم
تنفع، ويربطوا فىك» القرد يقطع ، وايمتا بقى لك ذى الصايح، يا بنت
اليوم والبارح ؛ حاجتك تفرحى لذى السعادة ، وتكونى سامعة لنا
ومنقادة ، ونحن مشايخ حاجتك توقرينا ، وبسك توسى علينا وتزدرينا ،
وأنا بركة الخزندار معروفة ، مليحة وموصوفة، وعلى جنبى قد أصبح
غيط، ولا لى باب ولا حيط ، والناس تعرف سنطى وأثلى ، وساير البرك
ما فيهم مثلى ، وأسماكى بلطى وبنى ، وكل ذا شغلى وفنى ، وعزى قد
بان وفضلى كثير ، وليس لى فى الدنيا لمثلى نظير ، وقد صفا لى الوقت

وراق ، لا بركة الرطلى تشبهنى ولا بركة جناق (١) . وانت ما أحد ينازع فى ظرفك ولا كيسك ، لكن اخذنى الناس على كيسك ، وما راينا لاحد عندك يابة ، ولو جاءتك المنية وشبرا وانباهه (٢) وانا ما مقصودى بينكم سوى الإصلاح ، وأروح موضعى لذيك الناح .

فعند ذلك أبدت الزاوية الحمرا عن شرح حالها ، وأعربت عن فصيح مقالها ، وقالت السلطان رسم بانشائى (٣) كما هو مكتوب على حوضى فوق اموائى ، وأنت يا بركة الخزندار مقامك ما يقتضى التكليم ، لكن انت وقناطر الوز فى الترسيم (٤) لأن كل واحد منكم بروحه غلطان ، وأغلقت شبابيك الربيع والخضرة ، وفتحت شبابيك الغيظ والجرة ،

(١) بركة الرطلى يمثل موقعها الآن حى بركة الرطلى بالظاهر بالقاهرة وقد سبق التعريف بها أما بركة جناق فقال عنها المقرئى ، هذه البركة خارج باب الفتوح كانت بالقرب من من مطرة باب الفتوح ، وكان ما حولها بساتين ، ولم يكن خارج باب الفتوح شىء من هذه الأبنية وإنما كان هناك بساتين فكانت هذه البركة فيما بين الخليج الكبير وبستان بن صيرم ، فلما حكر بستان ابن صيرم وعمر مكانه الآدر وغيرها وعمر الناس خارج باب الفتوح عمر ما حول هذه البركة بالدور وسكنها الناس وهى إلى الآن عامرة ، انظر الخطط ج ٢ ص ١٦٣ .
ويمثل موقع البركة الآن جزء من حى الحسينية شمال القاهرة فى منطقة يخترقها شارع الجيش فيما بينه وبين شارع الرعفراس .

(٢) المنية المقصودة هى مية السيرح وهى إحدى احياء شبرا الآن ، وهى بلدة قديمة لها أهميتها لوقوعها فى طريق الإسكندرية ، وسميت بهذا الاسم لأنه كان بها معاصر كثير للمشمم الذى يستخرج منه زيت الشيرح المعروف بالسيرح وهى تعرف أيضا بمنية الأمير ومية الأمراء لكثرة من سكن بها منهم فى العصر المملوكى وكانت آنذاك عامرة بدور السكنى والقصور وحمام وروايا وحمامات وبساتين ومنزهات وقد اتخذها الناس منزل قصف ودار لعب ولهو ومغنى صانعات وبها كان يعمل عيد الشهيد لقرىها من ناحية شبرا ، وذكر المقرئى انه ادركها عامرة بكثرة المساكن والأسواق والمنابر وتقصد للترهة بها أيام النيل والربيع لاسيما يومى الجمعة والأحد . انظر الخطط ج ٢ ص ١٣٠ .
(٣) السلطان المقصود هو أبو النصر قايتباى .
(٤) الترسيم : العنونة .

وأبدت ما عندها من اللطائف ، وأرسلت مطالعة كالبرق الخاطف ، بما حصل لها وما كان ، إلى حضرة مولانا جامع السلطان ، صاحب الروضة والرياض ، والقصور والبياض ، السيد الأمام ، صاحب البدرية والخيام (١) صاحب الأوراد والأذكار ، والبهجة والأنوار ، والألحان المطربة ، والأراضى المخصبة ، صاحب التهجد والقيام ، وفى ظلمة الليل والناس نيام ، وحوله عساكره المرتبة مثل المقياس والخروبية، وله المعزية ، والجامع الجديد فى مصر (٢) ، ايده الله تعالى بالنصر .

(١) الجامع المذكور المقصود به جامع قايتباى بجزيرة الروضة (اثر رقم ٥١٩) وكان جديدا آنذاك وهو يقع بشارع جامع قايتباى بجزيرة الروضة ، وتاريخ انشائه من ٨٨٦ - ٨٩٦ هـ / ١٤٨١ - ١٤٩١ م . وقد أشرف على عمارته البدرى حسن بن الطولونى .

« والمقصود بكلمة صاحب البدرية ان البدرى حسن بن الطولونى كان يصنع فى كل ليلة رابع عشر من كل شهر عربى ليلة حافلة بالجامع ويسمونها البدرية وينصب على شاطئ البحر قدام الجامع من الخيام مالا يحصى وتتجمع المراكب هناك حتى تسد السيل ويجتمع الجم العفير من العالم ويوقد بالجامع وقدة حافلة ويحضرها قراء اللد قاطبة والرعاظ وتكون ليلة حافلة لم يسمع بمثلا فيما تقدم واستمر بالحبال على ذلك مدة ثم بطل .

(٢) المقياس هو مقياس النيل بآحر جزيرة الروضة (اثر رقم ٧٩) والذي أمر ببنائه الخليفة المتوكل على الله سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦٢ م .

« أما الخروبية فهى المدرسة الخروبية التى أنشأها كبير أسرة الخرازية بدر الدين محمد بن محمد الخروبي التاجر بعد سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م على ساحل مصر قسبى دار النحاس . وقد ذكر المرحوم « محمد رمزى » ان هذه المدرسة عرفت باسم جامع القبوة لأنه كان معلقا على قبو فى مدخل شارع القبوة الخالى بمصر القديمة ، وقد زال هذا الجامع ولم يبق من آثاره إلا احد حائطى القبو على يمين الداخل فى شارع القبوة « (تعليق محمد رمزى على النجوم الزاهرة ج ٥ ص ١٧٢) وأقول ان هذه البقايا قد زالت الآن وقد كانت موقعة برقم ٥٣٢ على خريطة القاهرة للآثار الإسلامية (لوحة ٢ مربع ١١٣) براس شارع القبوة بمصر القديمة .

« والمعزية هى المدرسة المعرية التى أنشأها الملك المعز ايبك سنة ٦٥٤ هـ / ١٢٥٦ م ومحلها الآن جامع عابدى بك (اثر رقم ٥٢٤) المطل على شارع كورنيش النيل عصر القديمة .

« والجامع الجديد هو الجامع الناصرى الجديد الذى أنشأه الملك الناصر محمد بن قلاوون سنة ٧١٢ هـ وقد اندثر الآن وكان موقعا على النيل فى المنطقة التى يخرقها شارع السكر والليمون المتفرع من شارع كورنيش النيل عصر القديمة .

فلما قرأ هذه الشكاية ، انتكى لذلك غاية النكاية ، وكتب مراسيم العز لهما بما فيه الكفاية : من حضرة صاحب الروضة الذى على البحار أشرف ، جامع السلطان وهو الأشرف .

أما بعد . فان البربرى ، والبحر بحرى ، والمقياس مقياسى ، وما أحد قياسى ، ولى تأتى الناس يطلبوا الوفاء كل سنة ، ولى كل يوم ما يعود مثله لسنة ، وكل الناس تدعو لى بدوام الأيام ، وتجاهى منشية نايب الشام (١) ، ولى الحراقة والذهبية (٢) ورأس أتاكى جامع الزبكية (٣) وأنا صاحب الأرض والبلاد ، وحكمى على الأهرام الشداد ، ولى السبع وجوه والتاج (٤) وزاوية المتبولى وبركة الحاج (٥) ، وقد صفالى الوقت

(١) مشية نائب الشام المتصود بها مشية المهرانى على النيل والنيل التى يمثل موقعها اليوم منطقة قصر العيني وهى تمتد من ميدان فم الخليج حتى شارع الدكتور حدوسة ، وكان لمشية المهرانى أهمية كبيرة آنذاك فى العصر المملوكى لوقوع الاحتفال بكسر سد الخليج بها .

(٢) الحراقة سفينة حربية بها مرام تلقى النار على العدو ولها نحو مائة مجداف والمتصودة هنا نوع من السفن الخفيفة تستخدم فى العصر المملوكى فى النيل لحمل الأمراء ورجال الدولة فى الاستعراضات البحرية والحفلات الرسمية .

أما الذهبية فكانت مركبا كبيرا خاصا بالسلطان ، وكانت من شعائر المملكة ولا سيما يوم وفاء النيل ، وكانت السلاطين تتوجه بها إلى المقياس ، وكان بها ستون مجدانا ، وقد أبطلها السلطان قايتباى ضمن أشياء أبطلها من شعائر المملكة فى رمنه إلا ان السلطان العورى أعاد ساء واحدة اخرى تماثلها صنعت فى بولاق ورينت بالسناجق والأعلام ووضعت بها الطبول والنفوط .

(٣) الأتابك فى العصر المملوكى هو مقدم المماليك السلطانية وقائد الجيش أى وزير الدفاع بتعبير اليوم ، وجامع الزبكية هو جامع الأمير أزيك الذى بناه بالأزبكية سنة ٨٨٩ هـ وكان موقعه بالقرب من مدخل شارع الأهر وازيل ضمن ما أزيل من تنظيم ميدان العتبة الخضراء وفتح شارع محمد على .

(٤) التاج منظرة فاطمية كانت الحلما تنزلها للنزهة ، سماها الأفضل شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمالى ، وكانت محاطة هى وبقية المناظر الفاطمية بالساتر العظيمة ويمثل موقعها الآن المنطقة التى يبدأ منها شارع ترعة الخلال بالزاوية الحمراء .

وراق بجيعانية بولاق (١) ، صاحبة البسطة المعظمة ، والشبايك المخزومة ، وبها يحضر كل ظريف وداخل ، وهوها من كبد البحر الكبير داخل ، والحسن كله فيها قد احتوى ، وهوها يوجد إذا عدم الهوى ، وقبوها كم أوى إليه شخص واستقال ، وأكثر فيه من القيل والقال ، من أهل سويقة العياطين ، يكثر ذكر اخبار الملوك والسلاطين ؛ وما جرى فى الوجود للأنام ، وبعد لحظة يضره الهوى ينام ، وتنام رفقته من حواليه ، ولا يبقى يعرف راسه من رجليه ، وحسنها فى الأنام ماله مثيل ، وانها لتحكم على بولاق وجزيرة الفيل (٢) وانبابه وتلك الأقاليم ، وكم لها من الجوامك

= « أما الخمس وجوه فقد ساءا الأفضل شاهنشاه أيضا وقد أعاد بناءها فى العصر المملوكى السلطان الملك المؤيد شيخ سنة ٨٢٣ هـ ، وقد سميت بهذا الاسم لأنها اقيمت على بئر متسعة كان لها خمسة أوجه من الخال الخشب التى تنقل الماء لسقى البستان حولها ، وقد اطلق عليها العامة فى العصر المملوكى السبع وجوه ربما تيمنا بالرقم سبعة الذى له اعتبار كبير فى التراث الشعبى ، ويمثل موقعها الآن المنطقة التى بها شارع الآيلى بغمرة .

(٥) بركة الحاج تقع على بعد ٢٢ كم شمال القاهرة وكانت مساحتها فى العصر المملوكى نحو ٥٠٠٠ فدان وعبرتها ٣٠٠٠ دينار ، وكان لها أهمية كبيرة فى التاريخ بحكم موقعها الاستراتيجى الهام بصفتها أول وآخر محطة للذاهبين والعائدين بطريق الحج والتجارة للمحجاز والشام وكذلك كانت متنزها كبيرا ومضمارا للرياضة والصيد حتى نهاية العصر العثمانى .

« وزاوية المتبولى أسأها ودفن بقبتها العارف بالله سيدى إبراهيم بن على بن عمر المتبولى المتوفى فى ذى الحجة سنة ٨٧٧ هـ / ١٤٧٢ م ، وقد جددت الزاوية سنة ١٠٢٨ هـ / ١٦١٩ م وهى من أهم الآثار الموجودة بركة الحاج للآن .

(١) جيعانية بولاق مدرسة لطيفة تنسب إلى يحيى بن شاکر بن عبد الغنى بن شاکر ، أبو زكريا شرف الدين ابن الجيعان (٨١٤ - ٨٨٥ هـ) كان مستوفى ديوان الخيش وهو صاحب كتاب التحفة السنوية بأسماء البلاد المصرية .

(٢) جزيرة الفيل ظهرت للوجود فى راس الدولة الأيوبية نتيجة غرق مركب كبير يسمى الفيل فى نهر النيل وترك فى مكانه فرنا عليه الرمل وظلت تنمو تناعا ، وهى المعروفة الآن بجزيرة بدران بشبرا مصر بالقاهرة .

والمعاليم (١) وجامع البارزى (٢) عليها قط ما يزر ، وكم انشأ فيه صاحبه أشجارا وغرز ، والاستادارية (٣) مع هذه الحرمة العظيمة ، وماشية معها على الطريقة المستقيمة ، واما الزرد كاشية (٤) فقط ما سمعنا لها غناشيه ، وكم تحتها من فول وشعير ، وفيها يجلس المحتسب والوزير ، وجامع الخطيرى (٥) أيضا قط ما خطر بالبال ، ولا سمع له أحد قيل ولا قال ، وجامع تاج الدين منها قد اقترب ، وقد خدمه السعد بمجاورة تلك العمارة السعيدة وحوش العرب ، والروح فيه تنتعش غاية الانتعاش ، عند مشاهدة ذلك الخشخاش ، ومدرسة ابن الزمن لما برزت عليها غاية البراز ،

(١) الجوامك والمعالم هي الاحور او الملح التي تعطى من ربيع الوقف سواء اكان ذلك عينياً من ملابس واغذية او نقود .

(٢) جامع البارزى لم نعر على نص بخصوصه ، ولكن كان لابن البارزى قصرا كبيرا بيولاقي كان فى اصله لناصر الدين بن سلام فاستاجر منه ابن البارزى وأضاف عليه عدة بيوت مجاورة له وأتفن ببناءها ووضعا غربيا على قاعدة عمائر بلده حماه ، وقد أعجب السلطان المؤيد شيخ بها إعجاباً شديداً وقضى بها أوقاتاً عديدة . انظر ابن حجر العسقلانى ، انباء الغمر ج ٣ ص ١٩٦ .

* وابن البارزى هو ناصر الدين محمد بن محمد بن الصخر عثمان بن الكمال محمد بن عبد الرحيم بن عميد الله بن المسلم البارزى (٧٦٩ - ٨٤٣ هـ) برع فى الأدب دولى كتابة السر بالديار المصرية .

السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٢٧٤ .

(٣) الاستادارية وظيفه يقوم عليها الاستادار وهو المسئول عن بيوت وخزانات السلطان وكان من ألتصق الموظفين به فى إقامته ورحيله وأثناء سيره فى موكبه وغير ذلك من المهام وكان للاستادار ديوان خاص به يسمى ديوان الاستادارية او ديوان المقرد . انظر : حسن الباشا ، الغنون الإسلامية والوظائف على الآثار العربية ، نشر مكتبة دار النهضة العربية ١٩٦٥ م ، ج ١ ص ٣٩ - ٥٩ .

(٤) الزرد كاشية معناها صناع الزرد أى الدروع .

(٥) جامع الخطيرى بناه لأول مرة الأمير عز الدين ايدمر الخطيرى فى يولاقي سنة ٧٣٧ هـ وقد طغى عليه النيل عدة مرات فهدم وجدد عدة مرات ، ومازال الجامع موجودا ببناء جديد فى مكانه وهو يقع بأول شارع الخطيرى المتفرع من شارع ٢٦ يوليو (فؤاد سابقا) بالقرب من كوبرى أبو العلاء

أوقفت أمرها حتى يجئ منشيها من الحجاز ، ومن عطف من شقة
الدرب على جزيرة الفيل ، فقد سلك أحسن السلوك فلا يمتسى إلا قليل ،
ويطلع من شقة سيدى جلال الملوك ولا يمشى غير مدة لطيفة ، ويطلع من
شقة الزاوية الحمرا وتلك الأماكن الشريفة ، لتعلم الزاوية الحمرا انها
عندى من خاص الخواص ، ولا وزير يعدلها عندى ولا ناظر الخاص (١)
وانها من أعز جماعتى فى ملكى ، وفيها مدفون سيدى على التركى ،
وقد وليتها بهذا المكان ، حاكمة على جميع الخلعجان ، وعلى جميع
الأقطار والنواحي ، حتى الجسر والمسطاحى (٢) وفيها الدويدار (٣)
واخوانها، وعمائرى الكل فى ديوانها ، معضودة بالنصر والتأييد ، قوية
الشوكة ما على أيدها إيد ، ومن عارضتها شيطانة ومحتالة ، وتعرف
تسد موضعها بالسقالة ، وما هى حلاسك ولا انت حلاسها (٤) فسلا
تعملى راسك براسها ، ايا قناطر الوز مقصودنا قيدان ايش له من المقدار
والقيمة ، حتى تجاهينى به علينا ذى الجهاوات العظيمة ، لو قلت ذا القول

(١) ناظر الخاص هو المتحدث فيما هو خاص بمال السلطان من اقطاعه او نصيبه من أموال الخراج وبلاد
الجباية مما ليس من الاموال العامة

(٢) الجسر هو الجسر الذى يقع شمال بركة الرطللى ومكانه الآن شارع الظاهر والمسطاحى خط من حفظ
القاهرة يقع فى مطقة باب الشعرية الآن .

(٣) الدويدار واخوانها ربما المتصود بها قبة يشبك من مهدى الدويدار المعروفة بالقبة العداوية بشارع
العباسية التى بناها بين سنتى ٨٨٤ - ٨٨٦ هـ / ١٤٧٩ - ١٤٨١ م (اثر رقم ٥) وهى مخصصة
للنزهة هى واخوانها المتصود بها قبة قصر القبة الآن (اثر رقم ٤) وهى التى بناها سنتى ٨٨١ -
٨٨٢ هـ / ١٤٧٦ - ١٤٧٧ م ، وقبة معد الرفاعى بالقرب من حادقاه فرح من برقوق نقرافة الغفير .
(اثر رقم ١٠٨)

(٤) (جلس) بالمكان ، وفيه - جلساً : لزمه و - بالشئ : اولع به فهو جلس وهو جلسة . فهو
اجلس ايضاً .

فى حياة قيذان قيده وطردته ، عن ملكى وابعدته ، اذا كان مثل قصر
نائب جده (١) ، ماله سنين معتدة ، ماله وظيفة عندى مدى الشهر
والدهر، إلا جندى بطال مشرف على البحر ، وما نعرف فرسانك الا
الحفرة، بخيولهم العرج وسروجهم المكسرة ، ورماحهم المقصفة ،
وعيونهم المنصفة ، وزنوطهم المقرعة ، وذقونهم المشرعة ولأحد منهم
طلعه ، وعمامهم كأنهم وذن زلعة ، وكل من عشروا فيه بطشوه ، ومهما
لاح لهم لبطشوه ، وعيونهم ممتدة لذى البر ، ويحرموا جمل يشتر ،
وعملوا البياعين الجزر نقمة ، وكل من جاز يشرخوه فى حزمه ، وكل
شئ وجدوه طرقوه ، ومهما لاح لهم سرقوه ، وهم من حولك لا
يبرحوا، الا بينك وبين بركة الخزندار يسرحوا ، ويوم ينشرحوا يعملوا
البرجاس (٢) ، آدى عزك وآدى فخرتك فى الناس ، وهذا الكلام منك ما
هو مصلحة ، لو كنت ما كنت انتى عتيقة ملوحة ، ولا يقعد عندك إلا
من تكون وزته مجنحة، فكم تحتك غريق من الغرقة ، ولا يجلس فيك إلا
من تكون وزته متخنقة ، وانت يا بركة الخزندار قط ما انت شريفة ولا
وضيعة ، وما فيكى الاصير وذريعة ، وصيركى قد أضحى ملوحة
وجايف ، ولا عندك شئ من اللطائف ، وعليكى حارس للصير غدا
يحرس ، ودود سبطك للأنام يقرص ، وانك حفرة من الحفر ، وكل من
جاز يرجمك بحجر ، وما وظيفتك عندنا إلا لغسيل السفر ، ونصدق

(١) نائب حدة هو الأمير جاني بك الدوادار الذى شغل وظيفة نائب حدة قبل الدوادارية، وقد أنشأ
بستانا عظيما على النيل مساحته ١٥ فدانا يتوسطه القصر على النيل شمال القصر العيني بين ستنى
٥٨٦٣، ٥٨٦٧.

(٢) البرجاس لعبة عبارة عن هدف ينصب على رمح أو سارية فى أعلاه كرة من ذهب أو فضة يرميها
الفرسان وهم على الجياد .

عليكى وعلى صيركى اللباب والكسر ، و تخوفنا من أذاك ومن قلبك ،
وضعنا لك حاجب على جنبك ، يحرمك تتنفس وترتاحى ، إلا يعطيكى
فى جنبك بالمساحى ، وما رأينا لك شىء من المقدار ، إلا الصغار تشالق
عليكى بالأحجار ، وكم استخبأ فيك حرامى تحت الكيمان ، ولا لك
إسلام ولا إيمان ، وضمان صيرك اضحو بين الورى ابلال ، وكم طلبوا
فيك بطبل لا محط له ولا استقبال ، واذا لم تعملوها نفس طيبة مثل
القنطرة الجديدة (١) ، وإلا أرسلت لكم تجريدة ، ون كنتم متأسفين على
زمان سلف ، فعلى الله الخلف .

فلما سمعوا هذا الكلام ما منهم إلا أطرق راسه ، وعلموا ان البحر
الكبير ما هم قياسه ، وإنهم متى أبدوا معه شيئا من الخلاف ، غرقهم
وأتلفهم إتلاف ، فأتوا فى باب الاعتذار ، ودخلوا فى مقام الذل والانكسار
، وقالت قناطر الوز : أنا جاريتك و بنت عبدك ، وإن بت أو أصبحت كنت
عندك ، وانت الآن جامعة شملى وشمل أحبابى ، فليتنى لا أعدم فضلك يا
أكبر أصحابى ، وقد حصل لى بيهجتك وأنسك ، وأنا الآن تحت حسك ،
وإذا داس أقل عبيدك على رقبتى كنت له أرضا تطا ، وأنا قد وقع منى
الخطا ، وقد أتيتك مستغفرا ، والماضى ما يعاد شغل الفقرا ، وبركة الخزندار
خافت من مكالمتها الآن ، وارسلت تطلب الأمان .

فلما نظرت الزاوية الحمرا إلى قهرهم وغلبهم ، ووقوفهم تحتها وكسر
قلبهم ، أحسنت إلى بركة الخزندار غاية الاحسان ، وجعلتها جارية الملك
السلطان ، وصارت محمية الأسماك ، ولا يحكم عليها قصور ولا
أملاك ، وسعدت وزاد مالها ، وصار غيظها فرجة لكل من جاء لها ،
وخلعت على قناطر الوز وولتها ، وبمرور الإخوان عليها ألزمتها ، وتصافوا
بعد الهجران والقطيعة ، وثبتت للزاوية الحمرا الدرجة الرفيعة .

تمت المفخرة ولله الحمد فى الأولى وفى الآخرة والسلام . تم

(١) سبق التعريف بها .

المفاخرة الرابعة
مفاخرة الروضة ومصر القلبية

أولاً : دراسة تاريخية لمصر القديمة وجزيرة الروضة (أ) مصر القديمة :

طوال العصر الفاطمي (٣٥٨ - ٥٦٧ هـ / ٩٦٩ - ١١٧١ م) كانت الفسطاط هي مدينة مصر الرئيسية ومركز نشاطها الاقتصادي والصناعي والعلمي بينما كانت القاهرة هي مقر الحكومة الفاطمية ومركز الدولة الإداري والسياسي والمعقل الرئيسي لنشر الدعوة الشيعية الإسماعيلية ، ويكوّن مجموع المدينتين (القاهرة والفسطاط) العاصمة المصرية في العصر الفاطمي .

وقرب نهاية العصر الفاطمي اجتاح الفسطاط حريق متعمد في سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م بناء على أوامر الوزير شاور استمر أكثر من ٥٤ يوماً وأتى على الفسطاط كلها ، وقد اضطر أهلها للفرار إلى القاهرة للاحتباء بها أولاً وثانياً للدفاع عنها أمام هجوم عموري الأول ملك بيت المقدس الذي اضطر لفك حصار القاهرة بعد أن نما إلى علمه وصول جيوش نور الدين بقيادة شيركوه وابن أخيه صلاح الدين وتهديد ممتلكاته في فلسطين ، وقد تمكن شيركوه بعد القضاء على شاور وتولية الوزارة للعاقد الفاطمي من إقناع أهل الفسطاط بالعودة إلى ديارهم ، وإعادة البناء قد تمت بصورة فعلية خلال عام ٥٧٢ هـ / ١١٦٧ م وهو التاريخ الذي يجعله أبو صالح الأرميني بداية إعادة إصلاح العديد من كنائس

الفسطاط كما ان ابن جبير الذى زار مصر بعد هذا التاريخ بنحو خمس سنوات يذكر أن أغلب المدينة كان قد استجد وقت زيارته وان البنيان بها متصل .

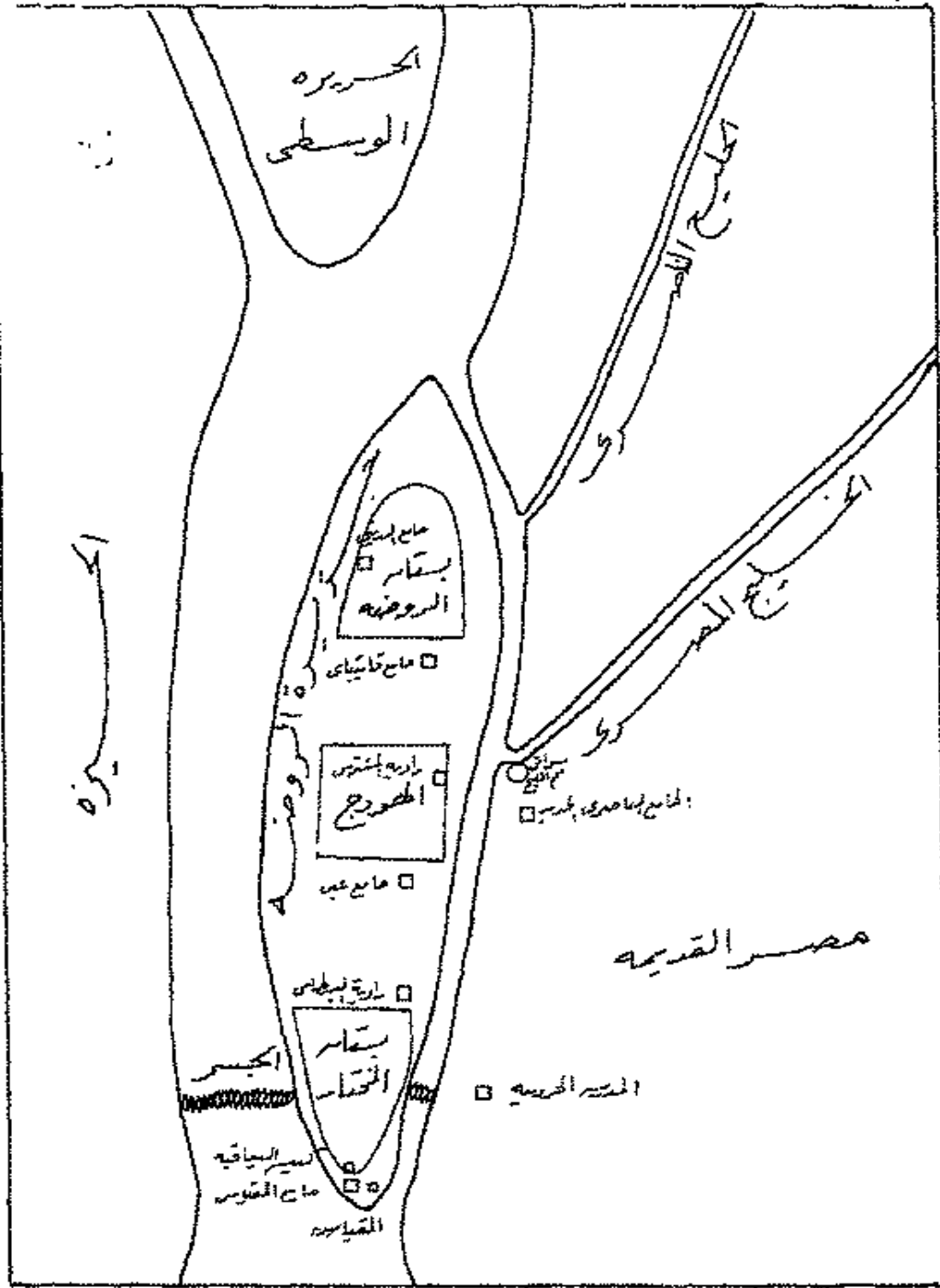
ورغم ان القاهرة قد فتحت أبوابها أمام الناس فى أعقاب استيلاء الأيوبيين على السلطة فقد ظلت الفسطاط رغم الأهوال والمصاعب التى مرت بها هى المدينة الأكثر اكتظاظاً بالسكان حيث عاد إلى الإقامة بها بسطاء الناس وعوامهم بينما استمرت القاهرة مقر سكن رجال البيت الأيوبي وكبار رجال الدولة .

على أن التعمير بالفسطاط فى العصر الأيوبي كان فى جزءها الغربى فقط وإلى مسافة ما شرق جامع عمرو وزحف العمران على الجانب الغربى لجامع عمرو حيث استجدت أراضى جديدة نتيجة طرح النيل ، وبدأ الأمراء والتجار يبنون المدارس والجوامع على هذه الأرض ، ومنذ ذلك الوقت أخذ اسم الفسطاط يضمحل ويحل محله اسم مصر القديمة .

وفى نهاية العصر الأيوبي كان التعمير على أشده على طول شاطئ النيل بمصر القديمة حيث انتقل مقر الحكم من قلعة الجبل إلى القلعة التى أقامها الملك الصالح نجم الدين أيوب فى جزيرة الروضة وانتقل إليها هو وخواصه وحرمه سنة ٦٣٨ هـ / ١٢٤١ م وقد جعل الملك الصالح بالقلعة ستين برجاً وكون فرقة من المماليك نشأهم فى قلعة الروضة وهم الذين خلفوا الدولة الأيوبية باسم المماليك البحرية وقد بنى أمراء الملك الصالح بيوتاً متجاورة على شاطئ النيل بمصر القديمة مواجهة لقلعة الروضة حتى يكونوا بالقرب من مقر الحكم ، واستمر التعمير قائماً فى مصر القديمة طوال العصرين المملوكى والعثمانى ، وفى خطط المقريرى

ذكر للعديد من المنشآت الهامة التي كانت بها وفي المصادر والوثائق العثمانية العديد من الأحداث التي تتعلق بمصر القديمة وعن أهميتها كعاصمة قديمة ومكان إقامة عدد لا بأس به من سكان القاهرة آنذاك .

ومما يدل على تعمير مصر القديمة في العصر المملوكي ما أورده المقرئزي من عمائر أيوبية ومملوكية كانت تؤدي دورها بانتظام أيامه مثل المدارس الأيوبية منها المدرس القمحية ومدرسة يازكوخ ومدرسة منازل العز ومدرسة العادل ومدرسة ابن الأرسوفى والمدرسة الفائزية ومدرسة ابن زنبق ، ومن المدارس المملوكية ثلاث مدارس كبيرة لأسرة الخروبي ومدرسة المحلى والمدرسة الصاحبية البهائية والمدرسة المجدية الخليلية والمدرسة المسلمية ، والجوامع العظيمة الكبيرة مثل الجامع الناصري الجديد وجامع ابن اللبان وغيرها كثير .



(شكل ٩) جزيرة الروضة موقع عليها أهم منتزهاتها وآثارها

(ب) جزيرة الروضة

كانت جزيرة الروضة عروس المتنزهات على مر تاريخ مصر الاسلامى وتنزه بها الخلفاء والملوك والسلاطين ورعاياهم واستعملت فترة كمقر للحكم ، وكانت طيبة المسكن وموطنا لأفراح الناس واحتفالاتهم وأعيادهم .

نشأتها وموقعها : جزيرة الروضة هي أقدم الجزر النيلية بحدود القاهرة وكانت موجودة قبل الفتح الاسلامى لمصر بخلاف الجزر الأخرى التى تكونت فى ظل الإسلام (١) وهى تقع فى القطاع الشرقى من مجرى النيل بين مصر القديمة والجزيرة وكانت زمن الفتح تتوسط المجرى قبل ان ينحسر .

شكلها ومساحتها : وهى مستطيلة الشكل وطرفاها مدببان ومساحتها (٢) ٣١٨ فدانا ويبلغ متوسط طول الجزيرة ٣٢٠٠ متر واقصى عرض لها ٦٠٠ متر اسماءها : وقد عرفت الجزيرة فى أول الإسلام باسم الجزيرة وجزيرة مصر وجزيرة بابلون وعرفت أيضا باسم جزيرة الصناعة عندما انشئت بهادار لصناعة السفن سنة ٥٤ هـ كما عرفت باسم جزيرة المقياس نسبة لمقياس النيل الذى بنى سنة ٩٧ هـ / ٧١٥ كما قيل لها جزيرة الحصن نسبة للحصن الذى اقامة بها أحمد بن طولون سنة ٢٦٣هـ / ٨٧٦ م ، كما عرفت أيضا باسم جزيرة الفسطاط لمواجهتها للفسطاط وأخيرا عرفت باسم جزيرة الروضة نسبة للبهستان الذى انشأه الوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه سنة ٤٩٠ هـ / ١٠٩٦ م شمال الجزيرة

(١) جومار ، وصف مدينة القاهرة ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٢) تقرير من وزارة الاشغال .

وقد سماه الروضة وعمت التسمية على الجزيرة كلها منذ ذلك الوقت وحتى الآن (١) .

التطور العمراني للجزيرة : صار للجزيرة دور هام منذ بداية الدولة الأموية وذلك لأن والي مسلمة بن مخلد الأنصاري أنشأ بها سنة ٦٧٤ هـ / ٥٥٤ م دار صناعة السفن البحرية الحربية والتجارية (٢) .

وكانت الجزيرة عامرة بالدور والقصور في فترة حكم والي عبد العزيز بن مروان (٦٥ - ٨٥ هـ / ٦٨٥ - ٧٠٤ م) لذا عين لها والي يتولى الحكم بها ، وفي فترة خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦ - ٩٩ هـ / ٧١٥ - ٧١٧ م) بنى أسامة بن زيد التنوخي عامل الخراج بمصر مقياسا سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م ، ومن الأعمال التي خلدت الجزيرة بناء مقياس النيل الحالي بآخر جزيرة الروضة سنة ٢٤٧ هـ / ٨٦٢ م اثناء خلافة المتوكل على الله العباسي (٣) .

وعندما استقل أحمد بن طولون بحكم مصر وأسس دولة استمرت ٣٨ عاما (من ٢٥٤ - ٢٩٢ هـ / ٨٦٨ - ٩٠٥ م) وتوترت العلاقات بينه وبين الخلافة العباسية وتحرك القائد العباسي موسى بن بغا سنة ٢٦٣ هـ / ٨٧٧ م في زمن الخليفة المعتمد على الله ليحل محل ابن طولون ، لذا بي ابن طولون حصنا منيعا بجزيرة الروضة على أنقاض وبقايا أبراج وأساسات الحصن الروماني القديم ليكون معقلا له ولحريمه ولذخائره (٤) .

(١) محمد الششتاوي ، متزهات القاهرة ص ٧٠ - ٧١ .

(٢) ابن دقماق ، الانتصار ص ١٠٩ ، المقربي ، الخطط ج ٢ ص ١٧٨ .

(٣) المقربي ، الخطط ج ١ ص ٥٨ .

(٤) المقربي ، الخطط ج ٢ ص ١٨٠ ، القلقشندي ، صبح الاعشى ج ٣ ص ٣٩ .

واستقل محمد بن طغج الإخشيد بحكم مصر وأسس أسرة استمرت ٣٤ عاماً (من ٣٢٣ - ٣٥٨ هـ / ٩٣٥ - ٩٦٩ م) وفي سنة ٣٢٥ هـ نقل دار الصناعة من مكانها بالجزيرة إلى ساحل القسوط وأنشأ مكانها قصرًا وبستانًا سماه المختار أثنى عليهما المؤرخ المسعودي كشاهد عيان في حديثه عن الاحتفال بليلة الغطاس أيام الإخشيد في سنة ٣٣٠ هـ / ٩٤٢ م وصار الإخشيد يفاخر ببستانه وقصره هذا أهل العراق (١) .

وقد تمتعت الجزيرة أيام الدولة الفاطمية بأهمية كبيرة واعتبرت مدينة مستقلة وكان يقال « القاهرة ومصر والجزيرة » ، وفي فترة خلافة الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ / ٩٩٦ - ١٠٢٠ هـ) عمر الأمير غبن جامعًا بخطبة وهو أول المساجد الجامعة بالروضة وقد كثرت العمائر حوله (٢) ، ومحل هذا الجامع الآن زاوية صغيرة بشارع محمد ذو الفقار تعرف باسم جامع البارقي . وفي سنة ٤٨٥ هـ / ١٠٩٢ م بنى الوزير بدر الجمالي جامعًا مجاورًا للمقياس بعد ترميمه له (٣) وقد حل محله الآن قصر المنسترلي .

وفي سنة ٤٨٨ هـ / ١٠٩٥ م أنشأ شاهنشاه بن أمير الجيوش بدر الجمال بستانًا شمال الجزيرة وهو الروضة الذي تسمت الجزيرة باسمه (٤) وأنشأ الخليفة الأمر بأحكام الله (٤٩٥ - ٥٢٤ هـ / ١١٠١ - ١١٢٩ م) متنزهًا بجوار بستان المختار سماه الهودج لزوجته البدوية لأنها صعب

(١) المقريري ، الحفظ ج ١ ، ص ١٨١ .

(٢) محمد التستراوي ، متنزهات القاهرة ص ٧٩ .

(٣) نفسه ص ٨٠ - ٨١ .

(٤) السيوطي ، كركب الروضة ورقة ٢٧ .

عليها مفارقة ، ما اعتادت وأحبت ان تسرح طرفها فى الفضاء ولا ينقبض قلبها تحت حيطان المدينة فينى لها الهودج فى شكل غريب (١) ، ومكانه الآن المنطقة المواجهة لكوبرى الملك الصالح ، وكان للفاطميين منظرتين هامتين للنزهة تسمى احدهما المشتهى والأخرى المنتهى أشاد بهما الشعراء كثيرا .

ومن أهم ما عمر فى جزيرة الروضة زمن الدولة الأيوبية (٥٦٧ - ٦٤٨ هـ / ١١٧١ - ١٢٥٠ م) القلعة التى بناها الصالح نجم الدين أيوب لتكون قصر ومقر الحكم وحصنا له وللمالكة الذين استجدهم وعرفوا باسم المماليك البحرية ومكان هذه القلعة الآن يمثلها المنطقة الممتدة من زاوية البسطامى حتى نهاية الجزيرة (٢) .

وقد حظيت جزيرة الروضة فى عصر سلاطين المماليك بعناية فائقة لأنها عمرت بالمناظر والجواسق والقصور للأمراء وزرعت بالبساتين المثمرة وغرست بالأزهار واهتمت بها احتفالات ومهرجات بحرية حولها غاية فى الروعة واعتنى ببناء الاساطيل الحربية بها واحتفل السلاطين بها احتفالات كبيرة وقد ذكر ابن دقماق المتوفى سنة ٨٠٩ هـ / ١٤٠٦ م انه كان يوجد بالروضة نحو العشرين مسجدا وقد خربت القلعة وعادت الجزيرة كما كانت من قبل متنزهات وقصور وبساتين وجوامع وحمامات (٣) .

ومن الجوامع التى بنيت أيام السلطان حسام الدين لاجين ولا يزال

(١) المقرئى ، الخطط ج ٢ ص ١٨٢ . ، ابن اياس ، بدائع الزهور ج ١ ق ١ ص ٢٧١ .

(٢) انظر بالتفصيل . محمد الششتارى ، مشرقات القاهرة ص ٨٧ - ٩٢ .

(٣) الانتصار ص ١١٦ .

مجدداً في مكانه للآن جامع البسطامي ، ومن الجوامع العظيمة التي بنيت في سلطنة الناصر محمد بن قلاوون جامع الفخر الذي بناه القاضي الفخر ناظر الجيش سنة ٧٣٠ هـ وقد جدده شمس الدين المقسي سنة ٧٧٨ هـ (١) ثم هدمه وأقام بدله من جديد السلطان قايتباي واستغرق بناؤه عشر سنوات من ٨٨٦ - ٨٩٦ هـ وهو لا يزال عامراً بذكر الله للآن . وقد أنشأ السلطان الغوري سنة ٩١٧ هـ / ١٥١١ م قصراً على بسطة المقياس ومقعداً مطلاً على النيل قضى الغوري به أوقاتاً كثيرة . وكان يوجد شمال الجزيرة قرية تسمى منيل الممالك .

وفي العصر العثماني ظلت الجزيرة متنزهها جليلاً حافلة بالبساتين والقصور مثلما أخبرنا الرحالة النابلسي (٢) .

وبدراسة خريطة الحملة الفرنسية نجد بالروضة بعض التجمعات البنائية الصغيرة تتمثل في كفر عبد العزيز شمال غرب الجزيرة وكفر قايتباي حول الجامع وكذلك تجمع بنائي مجاور للمقياس ، بالإضافة لبعض القصور والجوامع المتفرقة بها ، وباقي الجزيرة مزروعة بالحقول والبساتين .

وقد انشئت في عصر اسرة محمد علي قصور فخمة وعند منتصف هذا القرن تحولت الجزيرة كلها للبناء . وكان للجزيرة جسرين أولهما يصل بين مصر القديمة والجزيرة كان موقعة مواجهاً لشارع القبوة بمصر القديمة والثاني مواجهاً له بين الجزيرة والجزيرة . ولكن هذين الجسرين كان يتعرضان كثيراً للتفكك والتلف .

(١) ابن دقماق ، الانتصار ج ٢ ص ١١٦ ، الخطوط ج ٢ ص ٣١١ .

(٢) الحقيقة والحاز ص ٢٣٦ ، ٢٥٦ .

ثانياً: التحقيق والتقييم

هذه المفاخرة وردت فى كتاب كوكب الروضة للسيوطى وقد حققت نصها أثناء تحقيقى له ، وقدمت هنا النص الصحيح .

وهى للأديب المملوكى الشريف صلاح الدين محمد بن أسى بكر الأسيوطى .

وهى مكتوبة باللغة العربية الفصحى السلسة فجاءت عباراتها سهلة رقيقة وألفاظها معبرة وقد أورد بها الكاتب بعض الأشعار بما يخدم المفاخرة .

وعن أهمية المفاخرة إنها تبين لنا استمرار مصر القديمة كمدينة كبيرة عامرة بالناس والعمران بعكس ما هو معروف عنها من تردى أوضاعها فى العصر المملوكى .

وهى تبين لنا كذلك أهمية الروضة كمتنزه كبير ومكان للاحتفال القومى العظيم وهو الاحتفال بوفاء النيل وتخليق المقياس .

ثالثا : النص مفاخرة بين الروضة ومصر

انشاء الشريف صلاح الدين محمد بن أبى بكر الاسيوطى رحمه
الله تعالى

قال : يقبل الأرض وينهى أنه ليس يخفى عن العلوم الكريمة ، والألباب
الكاملة السليمة ، ان النفس والروح للإسترواح ، أشد طلبا من راحتها
بالراح ، وان المملوك قصد مصر لهذا فى بعض الأيام ، وتنقل الى الروضة
متمتزا من غير آثام ، ، فملا العين بما لهما من المحاسن ، وبما خصتا به
وبذاك الماء العذب القراح الذى هو غير آسن ، ورأى أن كلا منهما بمعان
تفردت ، وبأوصاف غير ما شملها من الإطلاق دون الاخرى قيدت ،
فاستنطق لسان حالهما ، مفصحا عن أمرهما .

فقال مصر : بسم الله تبركا لفظا ومعنى . أنا القديمة مبني . والذى
إذا عدت أوصاف غيرى من البلدان فرادى جاءت محاسنى مشنى مشنى .
لى سمعة فى الجاهلية والإسلام . وإذا حل فى حال دخول دار الأمن
بسلام . وشبه بعض السلف خلق الدنيا بالطير وإنى الصدر . وحسبك
هذا التشبيه رفعة فى القدر . فخرى على البلاد كفخر العلماء على العباد

وذكرى فى كل ناد بين حاضر وباد . أنا نزهة النفوس . ومطلع البدور
والشموس . وإذا بدا زمن الربيع فترانى كالعروس . وحبذا بساتينى المفننة
بكل عصر طائل . ونيلى الجارى كالسكر المذاب للنائل . وأحسن بقول
القائل (١) .

أرض مصر فتلك أرض من كل فن لها فنون
ونيلها العذب فذاك بحر ما نظرت مثله العيون

فقالته الروضة : الحمد لله على هذه المسرة . ثم الحمد لله الذى أظهر
محاسنى بشهادة الضرة . وأقر كل لسان ممن رآنى بأنى لإنشراح القلوب
مقرة . أنا للجموع رائضة . وبأنواع الفرح والخير فائضة : ولموج الحرث
الذى مثل الجبال غائضة . أزهارى بطيبها تفوح . وبألوانها المعجبة
تتهرج وتلوح . وأغصانى تتمايل مما تلحن حمائمها وتنوح . نعم أنا
الجزيرة المستجدة . وناهيك بالحسن الجديد إذا فاخر ضد ضده . أنا
العروس بالتحقيق فى زمن الربيع . أنا زهرى الباسم الناسم وتلوينه
البديع . أنا لساكنى من الوشاة والرقباء والأعادى لا سيما فى أيام النيل
حصن منيع . ولله در القائل

زر الجزيرة وقت النيل فى السحر
فللجزيرة بالنيل المقيم بها
يا جنسدا هى والبحر المقيم بها
وجنسدا صفة المقياس بارزة
وجنسدا الروضة الغناء كم شبه
واغنم بها لذة الأصال والبكر
غنى عن المطر الجانى على الجدر
كأنها هالة دار على القمر
كمثل ردف له بالماء مؤتزر
فيها تقوم إلى جبرى على قدر

(١) هو الشاعر المملوكى ابن الصانع الحنفى .

فقلت مصر للروضة : الآن حصحص الحق ببيانه . وظهر بعد كتمانه أسأت بهذه المقابلة . وكيف لك بالمطاوله . أنا فضلى مذكور . وصيتى غير منكور . ودليلى القاطع كالسيف عند أهل العلم مشهور . ذكرت فى أربعة وعشرين موضعا من التنزيل . منها أربعة صريحة وبقائها بتأويل^(١) . ووردت الأخبار بسندها فى بصحة الأقاويل . شهد الإجماع بفضلى . ولى الآثار الجميلة والجامع العتيق كعبة للمصلى^(٢) وأنا مأوى النزيل من أبناء السبيل والعالم والصالح والمتولى . وكم للنزهة والتعبد عندى من زاوية . وكم فقير بالبحر وراوية . لطفت أبنائى فوصفوا بالركة والصفاء . وتمازجوا بحلاوتهم حب الوفا . فقبل عنهم ما ليس فيه خفا .

حبذا الفسطاط من والدة جنبت أولادها در الجفا

يأتى النيل إليها كدرا فإذا مازج أهلها صفا

فقلت الروضة : تبرهن البرهان . وبان البيان . قال الله عز وجل « فى روضة يحبرون »^(٣) وقال تعالى « فى روضات الجنات لهم ما

(١) الأربع مرات التى ورد فيها ذكر مصر فى القرآن الكريم صراحة هى ﴿ واوحينا إلى موسى وأخيه ان نبوءا لقومكما بمصر بيوتا ﴾ سورة يونس آية ٨١ ، وقوله تعالى ﴿ وقال الذى اشتراه من مصر لامراته اكرمى مثواى ﴾ سورة يوسف الآية ٢١ . وقوله تعالى عن فرعون ﴿ اليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتى ﴾ سورة الزحرف الآية ٥١ ، وقوله تعالى ﴿ ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين ﴾ سورة يوسف الآية ٩٩ . وعن ذكر مصر بالتأويل انظر :-

السيوطى ، حسن المحاضرة ج ١ ص ٦ - ٩ .

أحمد صبحى منصور ، مصر فى القرآن الكريم ، كتاب اليوم العدد ٣٠٦ .

(٢) الجامع العتيق هو جامع عمرو بن العاص بمصر القديمة .

(٣) سورة .

يشاؤون» (١) وحسبى بهذا دليلاً إذا أكثر المكثرون . وإن لم أكن تلك فى المعنى والعيان . ففيه تشبيه لى بأحسن الجنان . وهو من أقوى الدلائل على تفخم الشأن . فإن شهد بفضلك الإجماع فأنا كذلك وأزيد عليك بالقياس . وعرفت على الحقيقة بالوفاء دونك بلا إلباس . واشتهر افتخارى بالستر يوم الزينة (٢) على العاصى وغيره بين الناس . وإن كان لك جامع فى الزيادة . وآثار جميلة فكم لى بالأصابع زيادة . أياها أنا بها عيد وهى عادة . وطالما سعى سلطانك الى بملابسك الفاخرة وصالحك بسجادة ، وإن كان لك فخر بالبحر والزاوية . فإن لى فخري . بأننى روضة الطالبين ومجمع البحرين . وأنت مأوى الفعلة والبيعة والسوقة . والمذممة بأهل الذمة والكنائس والحانات والحانات المطروقة . وأنا للكبراء والوزراء والملوك وأهل الطريقة . أتملى بلقاء البدر عند طلوعه وما تفوزى بنظرة منه الإ عند الغروب . وأين إقبال الحبيب من إعراض المحبوب . وأحظى بالشمس بكرة النداء وتصلين بها من الهجير إلى استحكام الغيوب . والعجب منك كم لك طاقة . ولا لك على هذا طاقة . وأعجب منه تقابليين طلاوتى بالحراقة (٣) . وتلك النشافات عند الزلافة . فإن وصفت

(١) سورة الشورى آية ٢٢ .

(٢) يوم الزينة المقصود به يوم الاحتفال بوفاء النيل وتخليق مقياس النيل بالروضة وكسر سد الخليج ، وكان علامة الوفاء هو وصول الماء إلى ١٦ ذراعاً بأذرع عمود المقياس فحينئذ يسدل اس أبى الرداد القائم على أمر القياس ستارا على الشباك المقابل لمصر القساط فيحتفل الناس حينئذ بالوفاء ويتم فى اليوم التالى المهرجان الرسمى ويقال ان يوم الوفاء هو اليوم الذى وعد فرعون موسى عليه السلام - بالاجتماع فى قوله تعالى ﴿ قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى ﴾ .

(٣) الحراقة هى المركب التى كان يستخدمها السلطان أو من يسوب عنه فى الاحتفال لتخليق المقياس وكسر سد الخليج .

ظراوتى فى حد .

لك أيها المصر محاسن فليست إلا فى جنب أوصافى . وتأملى فما
ليساتينك أغصان خلافى . وكأنما ناظرت الشام بزهراتى وفاضلتها بها .
حتى كادت الجبهة تسجد لى باذن ربها . فحبذا منازل منى نفتح الشمال
فيها شمول . لابل الرياح الأربع على وجهها قبول . أصبح كل غصن من
رياضى يميم . وهو بنعمى الظل مقلدا . والنسيم يمشى على ذلك
الروض مقيدا . والماء يتجدد تجعيد المبرد فلا عجب أن يجلو عن القلب
الصدأ . ذات بحرین تعاضدا على رفع الهموم الخافية . ومدحت بما
يعاب سوى به من مخامرة النسين الواشى ومخالطة العين الصافية . قد
مرج الله تعالى فى « البحرین يلتقيان . وأخرج فى أعطاف الغصون من
زهراتى اللؤلؤ والمرجان ..

ذات وجهين فيهما خيم الجسر .. فأضحت بها القلوب تهيم

ذا يلى مصر فهو مصر وهذا .. يتولى وسيم فهو وسيم ..

فيلج البحار يسبح نون .. ويفج القفار يسبح ريم .

قد أعادت عصر التصابي صباها .. وأبادت فيها الغيوم الغيوم .

فقلت مصر : أنا مدينة الكسب والمعاش . وللمقيم بى إقامة حال ما
عاش . ومعدن المتأجر والمتأجر وذوى الرياش . أنا مستودع نفائس
الأموال . وحواصل الأقوات والغلال . فساكنى بجمع بين نعيمى الدنيا
والآخرة عاجلا وفى المآل . وفى كل ربع من رباعى للأحبة مربع .
ومخلص للمضطر فى بيوتى عند كل مطلع . وفى كل ناحية منى للمتتزه
مرتع . يكاد نهر الحجرى يجرى بين يدى ربى وحماى . والمشتري أن يبناع
ببرجه أدنى درجة من سنأى . فأنا على السعد ممدودة الرواق . منظومة

النطاق . تعود قاعاتى بالسبع الطباق . وكم من ذى ريم (١) . عند
الساتين والبريم (٢) ولا تنس العاشق والمعشوق (٣) والرصد . (٤) وبركة
الجيش (٥) التى لا ينكر حسنها احد . وفى المعنى

بها ما تلذ العين من حسن منظر وما ترضيه النفس من شهواتها
زمردة خضراء قد زين قرطها بلؤلؤة بيضاء من زهراتها
أنت إلى الهرم قريبة . وفريدة غريبة . وعدمت القوس (٦) ففقد

(١) ريم : غزال .

(٢) الساتين كانت قرية قديمة تعرف بساتين الوريير ، وقد نسبت إلى عدة وزراء فقد ذكر ابن دقماق
فى كتابه الانتصار ح ٤ ص ٥٧ أنها نسبت إما يعقوب بن كلس وزير الخليفة الفاطمى العزيز بالله
أو الوزير المدائنى أو الوزير ابن الفرات وزير كافور الاحشيدى وهى سبع ساتين أما المقرئى فى
الخط ح ٢ ص ١٥٧ فينسبها إلى الوزير المغربى وزير الخليفة المستنصر وذكرانها تقع قبلى بركة
الجيش وفيها مساكن وساتين كثيرة وبها جامع تمام فيه الجمعة ، وأقول ان القرية القديمة لا تزال
واقعة على تل مرتفع يتوسط الآن حى الساتين جوى القاهرة .

والبريم منته على النيل فى المنطقة المحيطة الآن بجامع اثر السبى بالقاهرة .

(٣) المعشوق هو ستان كبير كان مزروعا بالأشجار جوى الفسطاط من جملة خطة راشدة وظل عامرا
حتى العصر المملوكى ويمثل مكانه الآن منطقة الزهراء بحى مصر القديمة بالقاهرة .

(٤) الرصد هصة مرتفعة كانت مطلة على بركة الجيش وقد استخدمت فى العصر الفاطمى لرصد
الكواكب والنجوم ، ويمثل مكانها الآن المنطقة المعروفة باسم تل عنتر .

(٥) بركة الجيش كانت بركة كبيرة تمتلئ بالماء فى أيام فيضان النيل عن طريق خليج بنى والنل وفى فصل
الشتاء كانت تزرع محاصيل شتوية ؛ وكانت من متنزهات القاهرة الهامة حتى نهاية العصر
المملوكى ، وكانت البركة تعتبر من أعمال مصر من خانها القبلى أى تتبع فسطاط مصر من الساحة
الإدارية حتى نهاية العصر العثمانى .

ويمثل مساحتها الآن منطقة تقدر بحوالى ٢٢٠٠ فدان تتوسط المسافة بين الساتين ودار

السلام حاليا . وعنها بالتفصيل انظر . محمد الششتاوى ، متنزهات القاهرة ص ١٢٤ - ١٣٢

(٦) القوس هو عقد تبقى من القلعة التى بناها الصالح نجم الدين أيوب حوى حريرة الروضة وكان يقع
غربى القلعة ادركه المقرئى سنة ٨٢٠ هـ / ١٤١٧ م ، وكانت العامة تنزهه عنده وفيه يقول الشاعر

النواجى : مصر قالت دمشق لا تتحرق قط باسمها

لو رأت قوس روضتى منه راحت بسهمها

المشترى منك نصيبه . توقعين السالك في التعدى أو الغرق والتردى . أو الخوض مع الخائضين ، فدونك مهالك قبل وصوله للمطالب مع الرائضين . وما ثم مانع . يقتضى عدم الفرق بيننا إذ لا جامع .

فقلت الروضة : إن كان لك غلال فكم بك من مغلول . وعلى تنفق الأموال وتروح الأرواح فلك الحاصل ولى المحصول . وأنا من الهرم بعيدة . وقد أقررت فى هذه المعاباه بانى طارية المنشأ فى الحسن جديدة . والنظارة تشهد أننا تاملت .

وبالخرائب والكيمان تكونت ، نواحيك للنواح ، لأجساد بالقبور بغير أرواح . كم سيح سابع إلى أسرع من البرق . وقيم قطع بينى وبينك بالفرق . وكم ملك أراد الوصلة بيننا بجسر فما تجاسر . وأقدم طامعا فباء بالحسرة إذ انعكس أمره وتعاسر . وما بلغ أحد لك فى مناه . ولكن تصديت للجنابة على ونسيت ما يعنى لك من فانا على كل حال مخصصة بالجناه . إذا صفر منزل من منازلك فعندى آس وربيع . وإذا أتى جماد منك إلى عجب من حسنى البديع . مما بين سقاة جوار جلوس . وساق جوارى تذهب البؤس . وأدنى بقاعى هو المشتهى (١) وتناهيت فكان لى المنتهى (٢) . أفتح من قبض عليه الهم جامعا للمسرة وبسطة ويكرمه

(١) المشتهى عبارة عن منطرة (قصر للزئمة) ترجع للعصر الفاطمى بنيت قبل سنة ٤١٥ هـ / ١٠٢٤ م وكان الخلفاء الفاطميون ينتزهون بها ، وحل محلها فى العصر المملوكى رباط يسمى رباط المشتهى ثم دفن به أحد اعلام الصوفية فى العصر المملوكى وهو الشيخ الكاررونى المتوفى سنة ٧٧٤ هـ / ١٣٧٣ م فعرف الرباط منذ ذلك الوقت باسم زاوية الكازونى ، وقد أزيلت تلك الزاوية فى الاربعينات من هذا القرن لإنفاذ شارع جامع قايتاى وكان موضعها فى نهاية شارع عدده بدران المتفرخ من شارع النيل بالقرب من محطة اتوبيس الباشا حاليا .

(٢) المنتهى كانت إحدى المناظر الماطمية بجزيرة الروضة لم يذكر المؤرخون تاريخها ولا مكانها بالجزيرة ، وقد حولت إلى زاوية فى العصر المملوكى .

ربيعي الزاهي إذا انطوى بأكدار الزمن فيفرش له بسطه . ونشري أينما
 سار نفتح مثل نور الغزالة (١) حيثما لاسنح . وأنا الروضة الحسنة
 الانبساط ، وحلى أزهارى البهجة اقراط والحال بي كأنما حل بدار
 السلام . أعنى الجنة . واتخذنى ملجأ فكدت أن أكون من طوارق الأيام
 جنة . كيف أخذت على التعدى على فى المناظرة . وعبت ما هو لى
 ولك محاسن بالمغايرة . وذاك هو النعمى الذى هو لنا بمنزلة الوسن من
 الجفون . وتقربها الأعين كما تقربها العيون . وهو النيل الذى إذا أتى
 راق منظره . وشاقت من أمواجه وداراته أعكانه وسرره . وسقى مدة
 الأرض سقى الرحيق . وفاض منه كل خليج يصل الأمن وإن كان يقطع
 الطريق . وأصبح أنا بمقياس فى الحسن غاية وكرسى جبرى (٢) له فى
 كل وصف آية . لكن كنت أنت الأس وأنا الزائدة . فأنا من عندى تعرف
 القاعدة . وما لنا نتقاذف ونحتال للسباب بحبائل الشرك . ونأبى إلا
 الإقلاع بما لنا فى السمعة من المعنى المشترك . وإليه عاضد هذا الشاهد
 لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى الجنة العليا لمن يتفكر
 فأولادها الولدان والخور أهلها وروضتها الفردوس والنيل كوثر (٣)

(١) الغزالة هى الشمس .

(٢) كرسى الجسر هو رأس الجسر الذى كان يصل ساحل مصر بجزيرة الروضة وكان كرسى الجسر يقع
 أمام المدرسة الخروبية التى بناها بدر الدين الخروسي التاجر سنة ٧٥٠ هـ / ١٣٤٩ م على ساحل
 مصر قلى خط دار النحاس ، وقد زالت تلك المدرسة الآن وكانت بقاياها موحودة وموقعة على
 خرطة القاهرة للآثار الإسلامية برقم ٥٣٢ لوحة ٢ مربع ١٣ أراس شارع القبوة بمصر القديمة
 .ولكن تلك البقايا زالت عند شق شارع كورنيش النيل بمصر القديمة وكان كرسى الجسر يقع على
 النيل مواجه لشارع القبوة .

(٣) هذان البيتان للشاعر ناصر الدين العيذراوى ، وقد ذكر بصيغة أخرى هى

لعمرك ما مصر بمصر وإنما هى جنة الدنيا لمن يتفكر
 فأولادها الولدان والخور عيها وروضتها المقياس والنيل كوثر

فقلت مصر : هيهات هيهات . وانشدت هذه الأبيات
مصر لها صورة ومعنى وذكرها فى الورى يسير
وكل نعت يقال عنها فى جنب اوصافها يسير
فلما أبت مصر الانصاف ، واتصفت بهذه الأوصاف . اثنت الروضة
واسترجعت . وحميت حماما وتمنعت . وطلبت النصر بحلول ركاب
يحكم بعدل بينهما إذا حكم . انتهى والله تعالى أعلم .

الفهرس

٥	مقدمة
٧	المفاخرة الأولى : مفاخرة بركة الرطلى والجسر
١٢	أولا : دراسة تاريخية لبركة الرطلى والجسر عليها
٢١	التنزه بالجسر والبركة فى العصر المملوكى
٣٠	ثانيا : تحقيق المفاخرة وتقييمها
٣٦	ثالثا : النص مفاخرة بركة الرطلى والجسر
٥١	المفاخرة الثانية : الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة
٥٣	أولا : دراسة تاريخية للجزيرة الوسطى
٦٠	ثانيا : التحقيق والتقييم
٦٣	ثالثا : النص الدرة المنيرة فى مناظرة الجسر والجزيرة
٩١	المفاخرة الثالثة : مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء
٩٢	أولا : دراسة تاريخية لقناطر الوز والزاوية الحمراء
١٠٤	ثانيا : التحقيق والتقييم
١٠٦	ثالثا : النص : مفاخرة قناطر الوز والزاوية الحمراء
١٢٣	المفاخرة الرابعة : مفاخرة الروضة ومصر القديمة
١٢٤	أولا : دراسة تاريخية لمصر القديمة وجزيرة الروضة
١٣٣	ثانيا : التحقيق والتقييم
١٣٤	ثالثا : النص مفاخرة بين الروضة ومصر